القدس
عبر العصور

أبحاث

نثبت عروبة القدس

إصدارات دار الحسيني للطباعة والنشر والتوزيع

اسم الكتاب: أبحاث مؤتمر القدس عبر العصور ـ

اسم المؤلف: مجموعةمن الباحثين

رقم الايداع: /2018م

حقوق الطباعة محفوظة لمؤسسة الحسيني الثقافية

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تجزته

في نطاق استعادة المعلومات أو نقله أي شكل من الأشكال

المعروفة حاليا أو التى ترد مستقبلاً دون إذن خطي مسبق

المراسلات:

دار الحسيني للطباعة والنشر والتوزيع

المقطم الهضبة الوسطى الحي الرابع منزل رقم 5275 شارع عماد مصطفى

موبايل: 01144059975 ت: 27304004

إهداء

إلى أرواح كل الشهداء الذين

ضحوا بأرواحهم في سبيل فلسطين

إلى كل الشرفاء

الذين يؤمنون بعروبة القدس

رغم كل الزيف الذي

يروج له أعداء الأمة

مع خالص تحياتي

عبدالقادر الحسيني

تقديم

يسر مؤسسة الحسيني الثقافية أن تتبني طباعة ونشر هذه الأبحاث القيمة التي قُدمت خلال مؤتمر القدس عبر العصور والذي أقامته مؤسسة الحسيني الثقافية بقاعة نفرتيتي في يومي 11و12مايو 2018م تزامناً مع ذكري نكبة فلسطين التي تم اغتصابها بموافقة الدول الكبرى ، وقد تضمن برنامج المؤتمر العديد من الفعاليات وخرج المؤتمر بتوصيات هامة ، ومؤسسة الحسيني مهتمة بقضية فلسطين باعتبارها قضية أمن قومي لمصر وللعرب أجمعين فلابد من الانتباه جيداً لها ، ولسوف تتوالى إصدارات المؤسسة التى تلبي رغبات الشعراء والأدباء في كل مجالات الإبداع خلال الفترة القادمة ، ولا يسعنا في هذا المقام إلا أن نتقدم بالشكر الجزيل لكل من تعاون معنا في سبيل تحقيق أهداف المؤسسة في نشر الثقافة الحقيقية التي تعبر عن هوية الأمة ، وترتقي بالذوق العام وتواكب الحاجة الملحة لالقاء الضوء على ابداعات الشعراء والادباء خارج القاهرة ، ونخص بالذكر نقادنا الافاضل الدكتور حسام عقل، والدكتور على جاد الحق ، والناقدة رانيا مسعود ، والناقد عاطف عز الدين الذين يثرون الأعمال الأدبية بنقدهم البناء ، ان مشروع مؤسسة الحسيني الثقافية مشروع طموح لاستعادة دور مصر الريادي الموكول بها في عالما العربي منذ بدء الخليقة ، وسوف نمضي قدما لتحقيق هذا الهدف، وبذل الكثير من الجهد لإيماننا بأهمية الثقافة في تحقيق النهضة المأمولة لأمتنا . لقد قررت

المؤسسة منذ بداية عملها أن يكون في أوليات عملها رعاية الابداع والمبدعين لاكتشاف المبدعين الحقيقيين في مجال الأدب ورعايتهم وإلقاء الضوء عليهم من خلال النقد البناء لتسهيل فرصة حصولهم على الجوائز العالمية في مجال الأدب من خلال نقاد مؤهلين للنقد، كذلك فقد أطلقت المؤسسة مبادرة ميثاق شرف المثقفين أفراداً ومؤسسات وجمعيات ، ونود في هذه المقدمة أن نشير إلى ان اهتمام مؤسسة الحسيني الثقافية بشعراء وادباء الاقاليم شيئ أساسي ضمن سياستها برعاية الابداع والمبدعين في كل مكان فهناك الكثير من المبدعين في حاجة لمساعدتهم وإلقاء الضوء على أعمالهم الأدبية، ومؤسسة الحسيني الثقافية ليست فقط مجرد ندوات أدبية أو ثقافية أو فنية فقط ولاتهدف للربح في المقام الأول ، وإنما ترعى المبدعين في كل مجالات الابداع ، مثل الفنون التشكيلية وفنون المسرح والسينما وغيرها من الفنون ، نضع بين يدى المثقفين هذا الديوان ، آملين أن يحوزعلى القبول والله الموفق

رئيس مجلس الأمناء

عبدالقادر الحسيني

مدينة القدس

في كتابات

الرحالة والمؤرخين

د . يسري عبد الغني
باحث وخبير في التراث الثقافي
نائب رئيس مركز الدراسات القرآنية واللغوية
بيروت ـ لبنان
رئيس المنتدى الثقافي للأصالة والمعاصرة ـ القاهرة

تقديم

تمثل مدينة القدس، زهرة المدائن، بهيبتها وجلالها تاريخاً حافلاً بكل دلائل البطولة والصمود، رغم كل الموجات البشرية التي تعاقبت في حكمها، منذ أسسها اليبوسيون العرب قبل ثلاثة آلاف سنة، وحتى جثم عليها الاحتلال الصهيوني في العصر الحديث

والذي يقرأ تاريخ القدس يجد أصالة الوجود العربي والإسلامي في هذه المدينة المقدسة منذ نشأتها، ويكفي القدس أنها مهد الرسل والأنبياء، ومبعث كلمة الله عيسى عليه السلام، ومسرى النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)،وأولى القبلتين،وثالث الحرمين الشريفين .

فبيت المقدس بناه الأنبياء، وسكنوه، وليس فيه موضع شبر إلا وصلى فيه نبي، أو قام فيه ملك، وتاريخ الإنسانية لا يعي في ذاكرته الحية مدينة التقت فيها الديانات السماوية الثلاث: اليهودية والمسيحية والإسلام، كما التقت في مدينة القدس، ولم يع التاريخ أيضاً مدينة تعانقت في فضائها المعابد والكنائس والمساجد, كما تعانقت في سماء القدس، ولم يشهد التاريخ - بكل جوارحه - نمو فضيلة التسامح الديني كما شهدها تنمو وتترعرع إبان الحكم الإسلامي خلال ثلاثة عشر قرنًا في القدس، منذ العهدة العمرية، ولقد عبر الرحالة والمؤرخون الذين زاروا القدس في فترات زمنية مختلفة عن عبق التاريخ الإسلامي في هذه المدينة، والوجود العربي والإسلامي المتواصل بها، والذي تؤكده الآثار والمقدسات الإسلامية التي وصفوها وصفاً دقيقاً في رحلاتهم، وعلى رأس هؤلاء الرحالة : ابن بطوطة ، وابن حوقل ، والمقدسي ، والشريف الإدريسي ، وناصر الدين خسرو ، والقزويني، وغيرهم من الرحالة والمؤرخين الذين حرصوا على زيارة هذه المدينة المقدسة، وتسجيل مشاهداتهم في رحلاتهم التي يزخر بها التراث العربي والإسلامي.

رحالة غربيون في القدس

كما كانت فلسطين والقدس محط أنظار الرحالة والفنانين الغربيين عبر العصور، وخاصة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وذلك للوقوف على ما بها من آثار وعمارة ومعالم دينية، إلى جانب مواطن الأحداث التي تضمها تلك البلاد المقدسة، فقد زارها مئات الرحالة والأدباء وكتبوا عنها، فأخذت حيزاً كبيراً من رحلاتهم وأشعارهم، حتى إنه من العسير حصر جميع من ارتادوها من الرحالة والفنانين والأدباء ففي القرن التاسع عشر وحده كانت القدس محج المصورين العالميين، فكان يتجول في أنحائها نحو 300 مصور أجنبي، وطبعوا خلال تلك الفترة عشرات الآلاف من الصور عنها وعن الأردن ومصر .

مصدر إلهام للمبدعين والفنانين

ولا شك أن مدينة القدس تشكل في تاريخها ومكانتها المقدسة والأحداث التي مرت عليها ونمط عمرانها وهندستها، مصدر إلهام للمبدعين والفنانين في الشرق والغرب، وخصوصاً الفنانين التشكيليين الذين أفادوا من ألوانها وعماراتها وفنونها كمفردات وموضوعات للوحاتهم، مثل الرحالة والرسام البريطاني «ديفيد روبرتس»، رسم بالألوان المائية الكنائس والأديرة والمسجد الأقصى وقبة الصخرة ومسجد عمر بالقدس، والمغطس والبحر الميت، وقبر سيدنا يوسف، وكنيسة القيامة بالقدس، ونبع العذراء بالناصرة، وغير ذلك من الأماكن الأثرية والمواقع السياحية المرتبطة بسير الأنبياء، وسجل خلال ذلك البيئة المحيطة في فصولها المختلفة والأشجار المحيطة بها ووسائل النقل آنذاك، وأزياء أبناء المنطقة ، وملامح معاشهم اليومي

والرسام البريطاني «وليام بارتليت»، وهو من رواد التصوير الاستشراقي الذين اهتموا بالقدس، وخلال رحلاته إلى الشرق أنجز أكثر

من ألف رسم احتواها ما يربو على اثني عشر كتاباً، وكان ماهراً في الرسم والتصوير، ومبدعاً في الكتابة والتأليف ، وكانت فلسطين محط حماسته الفنية لشغفه بالشخصيات والمواقع التي وردت في الكتاب المقدس، ولم يفته أي تفصيل ديني أو دنيوي أو مظهر من مظاهر الحياة المعاصرة أو من تاريخ هذه الأرض المقدسة إلا وسجله في رسومه وتعليقاته عليها، والتي جاءت في صورة بيانية جميلة والمصور الألماني «جوستاف باورنفيند»، الذي قام خلال رحلاته إلى فلسطين والقدس برسم العديد من الصور للمدينة المقدسة وميناء يافا وأسواقها، وتعد لوحته لسوق يافا آية من آيات التصوير الاستشراقي للشوارع والأسواق في الشرق العربي ، وعندما تم اختراع التصوير الفوتوغرافي عام 1839م، كانت الديار المقدسة من أوائل المواقع في العالم التي تم تصويرها فوتوغرافياً، فالقدس بمبانيها الدينية المقدسة كانت وما زالت

ولقد عاش في القدس .تشكل أفضل المواقع للتصوير الفوتوغرافي بعض المصورين الأجانب مثل «جيمس جراهام»، والتقطوا العديد من الصور، وكذلك زار القدس القس «ألبرت أغسطس إسحاق» عام 1850م، وبمساعدة جراهام قام بالتقاط عدد من الصور، ونشر الكثير من الكتب التي زينها بلوحات مبنية على صور مقدسية .

المقدسي يصف القدس :

وفي كتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) ، يقول لنا: شمس الدين محمد بن أحمد المقدسي ،وعندما نقف على طرف من وصف القدس ومساجدها وآثارها في ذاكرة الرحالة والمؤرخين المسلمين، نجد أول هؤلاء الرحالة هو «شمس الدين المقدسي» في كتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم)حيث يقول : «بيت المقدس ليس في مدائن الكوَر أكبر منها، لا شديد البرد وليس بها حر، وقل ما يقع بها ثلج، بنيانه

حجر لا ترى أحسن منه، ولا أتقن من بنائها، ولا أعف من أهلها، ولا أطيب من العيش بها، ولا أنظف من أسواقها، ولا أكبر من مسجدها، ولا أكثر من مشاهدها، عنبها خطير، وفيها كل حاذق وطبيب، وإليها قلب كل لبيب، ولا تخلو كل يوم من غريب.

ثم يقول المقدسي: كنت يوماً في مجلس القاضي المختار أبي يحيى بن بهرام بالبصرة فجرى ذكر مصر، إلى أن سئلت: أي بلد أجل؟ قلت: بلدنا. قيل: فأيها أطيب؟ قلت: بلدنا أفضل؟ قلت : بلدنا. قيل: فأيها أحسن و أكبر؟ قلت : قيل: فأيها أكثر خيرات؟ قلت: بلدنا فتعجب أهل المجلس من ذلك ، وقيل: أنت رجل محصل، وقد ادعيت ما لا يقبل منك، وما مثلك إلا كصاحب الناقة مع الحجاج! قلت : أما قولي أجلُّ؛ فلأنها بلدة جمعت الدنيا والآخرة؛ فمن كان من أبناء الدنيا وأراد الآخرة وجد سوقها، ومن كان من أبناء الآخرة فدعته نفسه إلى نعمة الدنيا وجدها .

وأما طيب الهواء فإنه لا سم لبردها ولا أذى لحرها، وأما الحسن فلا ترى ، أحسن من بنيانها ولا أنظف منها ولا أنزه من مسجدها .

وأما كثرة الخيرات فقد جمع الله تعالى فيها فواكه الأغوار والسهل والجبال والأشياء المتضادة كالأترج واللوز والرطب والجوز والتين والموز، وأما الفضل فلأنها عرصة القيامة ومنها المحشر وإليها المنشر، وإنما فضلت مكة والمدينة بالكعبة والنبي - صلى الله عليه وسلم - ويوم القيامة تزفان إليها فتحوي الفضل كله، وأما الكبر فالخلائق كلهم فاستحسنوا ذلك وأقروابه يحشرون إليها فأيّ أرض أوسع منها،

مدينة جليلة:

وأما الشريف الإدريسي فقد زار القدس أثناء الاحتلال الصليبي لها وكتب عنها في كتابه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) يقول: «بيت المقدس مدينة جليلة قديمة البناء، وكانت تسمى إيلياء، وهي على جبل يصعد إليها من كل جانب، وهي في ذاتها طويلة وطولها من المغرب إلى المشرق، وفي طرفها الغربي باب المحراب، وهذا الباب عليه قبة داوود

(عليه السلام) ، وفي طرفها الشرقي باب يسمى باب الرحمة، وهو مغلق لا يفتح إلا من عيد الزيتون لمثله، ولها من جهة الجنوب باب يسمى باب صهيون، ومن جهة الشمال باب عمود الغراب .
ثم يقول: «وإذا دخل الداخل من باب المحراب يسير نحو المشرق في زقاقٍ شارعٍ إلى الكنيسة العظمى المعروفة بكنيسة القيامة، وهي الكنيسة المحجوج إليها من جميع بلاد الروم التي في مشارق الأرض ومغاربها، وإذا خرجت من هذه الكنيسة العظمى وقصدت شرقاً لقيت بيت المقدس الذي بناه سليمان بن داوود، وكان مسجداً محجوجاً إليه في أيام دولة اليهود، ثم انتزع من أيديهم وأخرجوا عنه إلى مدة الإسلام، فكان معظماً في مدة ملك المسلمين، وهو المسجد المعظم المسمى بالأقصى ، وليس في الأرض كلها مسجد على قدره إلا المسجد الجامع الذي بقرطبة من بلاد الأندلس، وصحن المسجد الأقصى في تربيع طوله مئتا باع في عرض مائة وثمانين باعاً، نصفه مما يلي المحراب مسقف بصخر على عمد كثيرة صفوفاً، والنصف الثاني صحن لا سقف له، وفي وسط الجامع قبة عظيمة تعرف بقبة الصخرة المسماة بالواقعة ، وهو حجر مربع كالدرقة في وسط القبة رأسها الواحد مرتفع عن الأرض مقدار نصف قامة أو أشفّ من ذلك، ورأسها الثاني لاصق بالأرض، وطول هذه الصخرة مقارب لعرضها تكون بضعة عشر ذراعاً في مثلها، ولهذه القبة أربعة أبواب، والباب الغربي منها يقابله مذبح، كان بنو إسرائيل يقربون عليه القرابين ، وبالقرب من الباب الشرقي من هذه الأبواب القبة المسماة بقدس القدس، وهي لطيفة القدر. والقبلي منها يقابله المسقف الذي كان مصلى المسلمين، فلما احتلها الروم (الصليبيون)، وبقي بأيديهم إلى وقت تأليفنا لهذا الكتاب - صيّروا هذا المسقف من المسجد بيوتاً يسكنها الجند المعروفون بالداوية ، ومعناه خدام بيت الله
وتخرج من هذا المسجد شرقاً تصل إلى باب الرحمة.. وبالقرب من هذا الباب باب آخر مفتوح يعرف بباب الأسباط عليه الدخول والخروج. وإذا خرجت من باب الأسباط في حدود مقدار رمية سهم فتجد كنيسة كبيرة

حسنة جداً على اسم السيدة مريم ويعرف المكان بالجسمانية ، وهناك قبرها بصدر جبل الزيتون وبينه وبين الأسباط نحو ميل ، وفي طريق الصعود إلى هذا الجبل كنيسة أخرى حسنة معظمة وفيها رجال ونساء محبوسون يبتغون بذلك أجر الله سبحانه

ابن بطوطة والقدس :

وأما الرحالة الأندلسي ابن بطوطة فقد خرج إلى الحج، فانطلق يجوب العالم، ومكث في ترحاله أكثر من عشرين سنة، وكان لا بد أن يدخل بيت المقدس، ويزور مساجدها ومعالمها، وكانت له فيها هذه الذكريات التي سجلها في رحلاته، حيث يقول في كتابه (تحفة النظارة في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) : سافرت من الخليل إلى القدس، فزرت في طريقي إليه مقبرة يونس (عليه السلام) وعليها بَنية كبيرة ومسجد، وزرتُ أيضاً بيت لحم، موضع ميلاد عيسى (عليه السلام) وبه أثر جذع النخلة، وعليه عمارة كثيرة، والنصارى يعظمونه أشد التعظيم، ويضيّفون من نزل به .

ثم وصلنا إلى بيت المقدس - شرفه الله - ثالث المسجدين الشريفين في رتبة الفضل، ومصعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومعرجه إلى السماء. وهو من المساجد العجيبة الرائقة، الفائقة الحسن، يقال: إنه ليس على وجه الأرض مسجد أكبر منه، وإن طوله من الشرق إلى الغرب سبعمائة واثنان وخمسون ذراعاً بالذراع المالكية، وعرضه من القبلة إلى الجوف أربعمائة ذراع وخمس وثلاثون ذراعاً، وله أبواب كثيرة في جهاته الثلاث، وأما الجهة القبلية منه فلا أعلم بها إلا باباً واحداً، وهو الذي يدخل منه الإمام. والمسجد كله فضاء غير مسقوف، في النهاية من إحكام العمل وإتقان الصنعة، مموه بالذهب والأصبغة الرائقة، وفي المسجد مواضع سواه مسقوفة .

أما قبة الصخرة فهي من أعجب المباني وأتقنها وأغربها شكلاً، قد توافر حظها من المحاسن، وأخذت من كل بديعة بطرف، وهي قائمة على نشر في وسط المسجد، يصعد إليها في درج رخام، ولها أربعة أبواب، والدائر بها مفروش بالرخام أيضاً، محكم الصنعة، وكذلك داخلها ، وفي ظاهرها وباطنها من أنواع التزويق، ورائق الصنعة ما يُعجز الواصف، وأكثر ذلك محلى بالذهب، فهي تتلألأ نوراً، وتلمع لمعان البرق، يحار بصر متأملها في محاسنها، ويقْصر لسان رائيها عن تمثيلها . وفي وسط القبة الصخرة الكريمة، التي جاء ذكرها في الآثار، فإن النبي (صلى الله عليه وسلم) عرج منها إلى السماء، وهي صخرة صماء، ارتفاعها نحو قامة، وتحتها مغارة في مقدار بيت صغير، ارتفاعها نحو قامة أيضاً، ينزل إليها على درج. وهنالك شكل محراب . ويصف ابن بطوطة بعض مشاهده في القدس الشريفة فيقول: «منها بعدوة الوادي المعروف بوادي جهنم في شرقي البلد، وعلى تل مرتفع هنالك بنية يقال إنها مصعد عيسى - عليه السلام - إلى السماء. وفي بطن الوادي المذكور كنيسة يعظمها النصارى، ويقولون : إن قبر مريم - عليها السلام - بها. وهناك أيضاً كنيسة أخرى معظمة يحجها النصارى، ويعتقدون أن قبر عيسى - عليه السلام - بها، وعلى كل من يحجها دفع ضريبة معلومة للمسلمين، وهناك موضع مهد عيسى - عليه السلام - يُتبرك به .

ابن حوقل والقدس :

وأما أبو القاسم بن حوقل البغدادي فهو رحالة جغرافي، كان تاجراً، ورحل إلى بغداد، ودخل المغرب وصقلية، وطاف ببلاد الأندلس وغيرها، وقد بدأ رحلته في شهر رمضان سنة 331 هـ، وكانت فلسطين إحدى محطاتها، وقال في وصفها من خلال كتابه : (صورة الأرض)

فلسطين أزكى بلدان الشام ربوعاً ، ومدينتـــها العظمى الرمْـلَة ، وبيـت المقدس تليها في الكبر، وهي مدينة مرتفعة على جبـــال ، يصعد إليها من كل مكان ، يقصدها القاصد من فلسطين.
ويصف المسجد الأقصى فيقول: بيت المقدس مسجد ليـس في الإســـلام مسجد أكبر منه، وله بناء في قبلته مسقف في زاوية من غربي المسجد ، ويمتد هذا التسقيف على نصف عرض المسجد، والباقي من المسجد خال لا بناء فيه ، إلا موضعَ الصخرة فإن هناك حجراً مرتفعاً كالدكة، عظيماً كبيراً غير مستو، وعلى الصخرة قبة عالية مستديرة الرأس، قد غُشِّيَت بالرصاص الغليظ السمك ، وارتفاع هذه الصخرة من الأرض - التي تعرف بصخرة موسى تحت هذه القبة - إلى صدر القائم ، وطولها وعرضها متقارب، وعليها حصار حائط ملوح ويكون نصف قامة .
وليس ببيت المقدس ماء جار سوى عيون لا تتسع للزروع ، وعليها شجيرات ، وهي من أخصب بلاد فلسطين على مر الأوقات، وفي سورها موضع يعرف بمحراب داوود النبي - عليه السلام - وهو بنية مرتفعة ، ارتفاعها نحو خمسين ذراعاً من حجارة ، وعرضها نحو ثلاثين ذراعاً بالحزر، وبأعلاه بناء كالحُجرة، وهو المحراب .

وإذا واصلت إلى بيت المقدس من الرملة فهو أول ما يلقاك، وبمسجدها لعامة الأنبياء آثار ومحاريب معروفة ، ولبيت المقدس - بناحية الجنوب منه على ستة أميال قرية تعرف ببيت لحم ، وبها كان مولد نبي الله عيسى (عليه السلام) .

وبفلسطين نحو عشرين منبراً (أي عشرين مسجداً جامعاً) على صغر موقعها .. وهي من أخصب البلاد، وإليها أشار الله - تعالى.

ساحة القيامة والحشر :

ويأتي رحالة آخر هو ناصر خسروعلي ، الذي أقبل من بلاد فارس زائراً للقدس، فأخذت روعتها بقلبه، ووصفها في كتابه (سفر نامة) بقوله :- «هي مدينة مشيَّدة على قمة الجبل، ليس بها ماء غير الأمطار، وهي مدينة كبيرة كان بها، في ذلك الوقت عشرون ألف رجل ، وبها أسواق جميلة وأبنية عالية، وكل أرضها مبلطة بالحجارة ، وقد سوّوا الجهات الجبلية والمرتفعات، وجعلوها مسطحة ، بحيث تُغسل الأرض كلها وتنظَّف حين تنزل الأمطار.

وفي المدينة صنّاع كثيرون، لكل جماعة منهم سوق خاصة ، والجامع شرقي المدينة وسورُه هو سورها الشرقي، وبعد الجامع سهل كبير مستو يسمى «الساهرة» يقال إنه سيكون ساحة القيامة والحشر، ولهذا يحضر إليه خلق كثيرون من أطراف العالم ويقيمون به ، فإذا جاء وعد الله كانوا بأرض الميعاد.

وعلى حافة هذا السهل قرافة عظيمة، ومقابر كثير من الصالحين، يصلي بها الناس ويرفعون بالدعاء أيديهم فيقضي الله حاجاتهم، وبين الجامع وسهل الساهرة واد عظيم الانخفاض كأنه خندق ، وبه أبنية كثيرة على نسق أبنية الأقدمين.

وادي جهنم :

ثم يقول ناصر خسرو: ورأيتُ قبة من الحجر المنحوت مقامة على بيت لم أر أعجب منها ، حتى إن الناظر إليها ليسأل نفسه كيف رُفعت في مكانها ؟ ويقول العامة : إنها بيت فرعون ، واسم هذا الوادي «وادي جهنم»، وقد سألت عمن أطلق هذا اللقب عليه فقيل: إن عمر - رضي الله عنه - أنزل جيشه أيام خلافته في سهل الساهرة هذا، فلما رأى الوادي قال: هذا وادي جهنم. ويقول العوامّ: إن من يذهب إلى نهايته يسمع صياح

أهل جهنم ، فإن الصدى يرتفع من هناك ، وقد ذهبت فلم أسمع شيئاً وفي بيت المقدس مستشفى عظيم عليه أوقاف طائلة ، ويصرف لمرضاه العديدين العلاج والدواء، وبه أطباء يأخذون مرتباتهم من الوقف ، وهذا والحوائط داخل J المستشفى ومسجد الجمعة يقعان على حافة وادي جهنم

المسجد ذات ارتفاع مستو، وقد بُني المسجد في هذا المكان لوجود «الصخرة» به، وهي الصخرة التي أمر الله - عز وجل - موسى - عليه السلام - أن يتخذها قبلة . فلما قُضي هذا الأمر، واتخذها موسى قبلة له ، لم يعمَّر كثيراً، بل عجّلت به المنية، حتى إذا كانت أيام سليمان - عليه السلام - وكانت الصخرة قبلة ، بنى مسجداً حولها بحيث أصبحت في وسطه ، وظلت الصخرة قبلة حتى عهد نبينا المصطفى – عليه الصلاة والسلام - فكان المصلون يولون وجوههم شطرها ، إلى أن أمرهم الله تعالى أن يولوا وجوههم شطر الكعبة ، وأرض المسجد مغطاة بحجارة موثوقة إلى بعضها بالرصاص، والمسجد شرقي المدينة والسوق ، فإذا دخله السائر من السوق ، فإنه يتجه شرقاً ، فيرى رواقاً عظيماً جميلاً ارتفاعه ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرون ، وللرواق جناحان ، وواجهتاهما وإيوانه منقوشة كلها بالفسيفساء المثبتة بالجص على الصورة التي يريدونها ، وهي من الدقة بحيث تبهر النظر، وطول المسجد من الشمال إلى الجنوب ، وهو ساحة مربعة إذا اقتطعت المقصورة منه ، والقبلة في الجنوب ، وعلى الجانب الشمالي بابان آخران متجاوران ، عرض كل منهما سبعة أذرع، وارتفاعه اثنتا عشرة ذراعاً ، ويسميان باب الأسباط .

فإذا اجتازه السائر، وذهب مع عرض المسجد - الذي هو جهة المشرق - يجد رواقاً عظيماً كبيراً به ثلاثة أبواب متجاورة ، في حجم « باب الأسباط»، وكلها مزينة بزخارف من الحديد والنحاس، قَلَّ ما هو أجمل منها تسمى « باب الأبواب » لأن للمواضع الأخرى بابين وله ثلاثة وبين هذين الرواقين الواقعين على الجانب الشمالي ، في الرواق ذي الطيقان المحملة على أعمدة الرخام ، قبة رفعت على دعائم وزينت

بالقناديل والمسارج ، تسمى قبة يعقوب - عليه السلام - لأنه كان يصلي هناك. وفي عرض المسجد رواق في حائطه باب خارجه صومعتان للصوفية. وهناك مصليات ومحاريب جميلة يقيم بها جماعة منهم، يصلون ؛ وعند الركن الشمالي للمسجد رواق جميل، وقبة جميلة لطيفة مكتوب عليها: «هذا محراب زكريا النبي - عليه السلام»، ويقال إنه كان يصلي هناك دائمًا .

مدينة الأنبياء :

وممن رحلوا إلى القدس «زكريا بن محمد القز ويني» ، والذي كتب عنها في كتابه (آثار البلاد وأخبار العباد) يقول: «هي المدينة المشهورة التي كانت محلَّ الأنبياء وقبلة الشرائع ومهبط الوحي ، وعن ابن عباس: البيت المُقدَّسُ بَنَتْهُ الأنبياء ، وسكنتْهُ الأنبياء ، وما فيه موضعُ شبر إلا وصلى فيه نبي أو قام فيه مَلَكٌ.

واتخذ سليمان فيها أشياءَ عجيبةً: منها قبة؛ وهي قبة كانت فيها سلسلة معلقة ينالها المُحِقّ ولا ينالها المُبْطِل حتى اضمحلّتْ بالحيلة المعروفة ، ومنها أنه بنى فيها بيتاً وأحكمه وصقله، فإذا دخله الورِعُ والفاجر كان ثم ضرب الدهر خيال الورعِ في الحائط أبيضَ ، وخيالُ الفاجرِ أسودَ ضرباته واستولت عليها الجبابرة وخربوها ، فاجتاز بها عُزَيْرٌ فرآها خاوية على عروشها، فقال: أنَّى يُحْيِي هذه اللهُ بعد موتها ؟ فأماته اللهُ مئة عام ثم بعثه، وقد عمرها ملك من ملوك الفرس اسمه كوشك ، فصارت أعمر مما كانت وأكثر أهلاً.

وبها المسجد الأقصى الذي شرفه الله - تعالى – وعظمه ، وهو في طرف الشرق من المدينة، أساسُه من عمل داوود - عليه السلام - طول كل حجرٍ عشرة أذرعٍ، وفي قبلتِه حجر أبيض عليه مكتوب: محمد رسول الله، خلقةً لم يكتبْه أحدٌ. وصحن المسجد طويل عريض ، طولُه أكثرُ من عرضه ، وهو في غاية الحسن والإحكام ، مبنيّ على أعمدة الرخام الملونة ، والفسيفساء الذي ليس في شيء من البلاد أحسن منه.

وفي صحن المسجد مصطبة كبيرة في ارتفاع خمسة أذرع، يصعد إليه مِنْ عدة مواضع بالدَّرَجِ، وفي وسط هذه المصطبة قبة عظيمة مثمنة على أعمدة رخام مسقفة برصاص، مُنَمَّقة من داخلٍ وخارجٍ بالفسيفساء، مطبقة بالرخام الملوّن. وفي وسطها الصخرة التي تُزار، وعلَى طرفها أثرُ قدم وتحتَها مغارة ينزل إليها بعدة درج، يُصَلَّى فيها. -النبي - عليه السلام ولهذه القبة أربعة أبواب، وفي شرقيِّها خارج القبة قبة أخرى على أعمدة حسنة يقولون: إنها قبة السلسلة، وقبة المعراج أيضاً على المصطبة ، وكذلك قبة النبي – عليه الصلاة و السلام ، كل ذلك على أعمدة مطبقة أعلاها بالرصاص .

وبها مربط البُراق الذي ركبه النبي - عليه السلام - تحت ركن المسجد، وبها محراب مريم - عليها السلام - الذي كانت الملائكة تأتيها فيه بفاكهة الشتاء في الصيف وبفاكهة الصيف في الشتاء ، وبها محراب زكريا - عليه السلام - الذي بَشَّرَتْه الملائكة بيحيى - عليه السلام - وهو قائم يصلي في المحراب ، وبها كرسيُّ سليمان الذي كان يدعو الله عليه .

الأثر الجليل بتاريخ القدس والخليل :

وفي نهاية المطاف نقف عند وصف العليمي (قاضي القضاة أبو اليمن مجير الدين الحنبلي المقدسي) لمدينة القدس في مؤلفه «الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل » الذي انتهى من تأليفه عام 901 هـ / 1496م، وهو من أهل القدس، فنجده يقول عنها: وأما مدينة القدس في عصرنا فهي مدينة عظيمة محكمة البناء. وهي بين جبال وأودية وبعض بناء المدينة مرتفع على علو وبعضه منخفض في واد ، وغالب الأبنية التي في الأماكن العالية مشرفة على ما هو دونها من الأماكن المنخفضة وشوارع المدينة ، بعضها سهل وبعضها وعر وفي غالب الأماكن يوجد أسفله أبنية قديمة ، وقد بني فوقها فهي بناء مستجد على بناء قديم والبناء مشحون بحيث لو تفرق على حكم غالب مدن مملكة الإسلام لكان حجم

المدينة ضعف ما هو الآن وهي كثـــيرة الآبار المعدة لخزن الماء لأن ماءها يجتمع من الأمطار ، وأما بناء بيت المقدس فهو في غاية الإحكام والإتقان ، جميعه بالأحجار الفص النحيت، وسقفه معقودة ليس بناية لبن، ولا في سقفه خشب .

وأما رؤية بيت المقدس من بعد فمن العجـايب في نورانيـتها وحـسن منظرها وأحسن رؤيتها من الشرق إذا كان الإنســان على جـــبل طور وكذلك من جهة القبلة، وأما من جهتي الغرب والشمال فلا يرى منها من ، بعد إلا القليل لمواراة الجبال لها .

ويتحدث عن أسواقها فيقول: من ذلك سوق القطــانين المـــجاور لباب المسجد من جهة الغرب وهو ســـــوق في غاية الإتقان لم يوجد مثله في كثير من البلاد. وأيضاً الأســـواق الثــلاثة المتجاورة بالــقرب من باب المحراب المعروف بباب الخليل، وهي من بناء الروم ممتدة قبل الـشام ، ومن بعضها البعض منافذ، فالأول منه وهو الغربي سوق العطارين الذي وقفه الملك صلاح الدين رحمه الله على المدرسة الصلاحية ، والذي يلـيه وهو الأوسط لبيع الخضراوات، والذي يليه لجهة الشـــــرق لبيع القماش وهما وقف على مصالح المسجد الأقصى الشريف، وقد ذكر المســافرون أنهم لم يروا مثل الأسواق الثلاثة في الترتيب والبــناء في بلد من البلاد ، وإن ذلك من المحاسن التي لبيت المقدس.

ويتحدث عن أحيائها فيذكر عشرة أحياء من الحارات المشهورة في بيت المقدس، منها حارة المغاربة وهي بجوار سور المسجد الأقصى من جهة الغرب ونسبــتها للمغاربة لكونها موقوفـــة عليهم وسكنهم بهـا ، وحارة الشرف وهي بجوارها من جهة الغرب ونســبتها لرجل من أكـــابر البلد اسمه شرف الدين مسوى وله ذرية معروفون يقـــال لــهم بنو الـشرف ، وحارة العلم نسبة لرجل اســـمه علم الدين سليــمان وكـــان يعرف بابن المهذب.

وأما شوارعها فأهمها: خط داوود، وهو الشـــــارع الأعظم وابتداؤه من باب المسجد الأقصى المعروف بباب السلـــــسلة إلى باب المحراب وهو

باب المدينة المعروف الآن بباب الخليل. ويضم هذا الخط ثمانية أسواق منها سوق الصاغة وسوق القشاشين وسوق المبيضين وسوق خان الفحم وسوق الطباخين وسوق الحريرية وسوق الغلال والوكالة التي يصفها بأنها خان عظيم وقف المسجد الأقصى تؤجر في السنة بنحو أربعمائة دينار يباع فيها أصناف البضائع .

وأما أبواب بيت المقدس: فأولها من جهة القبلة باب حارة المغاربة وباب صهيون، ومن جهة الغرب باب سري صغير بلصق دير الأرمن وباب المحراب وهو المسمى الآن "بباب الخليل" ويعرف أيضاً بباب الرحمة، ومن جهة الشمال باب دير السرب وباب العمود وباب الداعية وباب الساهرة. ومن جهة الشرق باب الأسباط فهذه عشرة أبواب لمدينة القدس الشريف

بعض الأسانيد والمراجع :

- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار- ابن فضل الله العمري - المركز الإسلامي للبحوث ببيروت - الطبعة الأولى 1986م.

- آثار البلاد وأخبار العباد – زكريا بن محمد بن محمود القزويني - دار صادر، بيروت.

- تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار - ابن بطوطة، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

- مصر في عيون الغرباء من الرحالة والفنانين والأدباء – ثروت عكاشة – دار الشروق – الطبعة الثانية - القاهرة، 2003م.

- صورة الأرض :ابن حوقل.

- أحسن التقاسـيم في معرفة الأقاليم – شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي.

- نزهة المشتاق - الشريف الإدريسي.

- معجم المؤلفين: محمد رضا كحالة.

- القدس تاريخ من الألم النـــبيل - محمد الخطيب الكـسواني وعـمران الرشق - مجلة

العربي، يناير 2002م

العنوان الاول

فتاوى القدس والارض المحتلة

مسارات التحدي والمقاومة في الفكر الإسلامي

العنوان الثاني

الفتاوى الشرعية في القضية الفلسطينية وعروبة مدينة القدس

تاريخ الفتوى والمفتي والمستفتي

الباحث د.عمرو عبد المنعم

المستخلص :

يلجئ عامة المسلمين وخاصتهم إلي الفتوى لتنير لهم الطريق الشرعي للأمور التي اشكلت عليهم وخاصة في المستجدات العصرية ، وفي الغالب يكون الرأي الشرعي المناسب لهذه القضايا من المؤسسات الدينية الرسمية والمجامع الفقهية المتخصصة .
تعد قضية فلسطين والقدس من القضايا التي تهم المسلمين جميعا فى مشارق الارض ومغاربها في كل زمان ومكان ، فالقدس تشكل جوهرا من موروثات الأمة الإسلامية ومقدستها، فهي مرتبطة بوجدانهم، فالقدس الإسراء والمعراج ، فالقدس أولي القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، فالقدس قضية دينية وهذا لا يعني أنها ليست سياسية تهم الفلسطينيين فقط وإنما تهم كل مسلم عربي قاطبة.
لذلك ففتاوى قضية فلسطين ، وعروبة المسجد الأقصى ، والجهاد لاستردادها، والصلح مع اسرائيل، شكلت عقل ووجدان أغلب المسلمين لما لها من شرعية ثابتة فى تناول المستجدات المجتمعية والواقعية لذلك يلجئ إليها المسلمين لبيان الحكم الشرعي لكي يقفوا على حدود امورها الثابتة والمتغيرة .

الموضوع

تعد قضية فلسطين من أهم القضايا السياسية في العالم العربي بل وهي أصل الصراع في الشرق الأوسط منذ إعلان وعد بلفور عام (1336هـ - 1917م) وما يتضمنه هذا الوعد لإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، حيث حاولت الصهيونية العالمية منذ هذا الإعلان بشتى الطرق تدعيم الكيان الصهيوني في فلسطين أمام المحافل الدولية والمؤتمرات العالمية.
واجتهد اليهود في جلب شعبهم إلى فلسطين من شتى دول العالم، ومنذ ذلك التاريخ ودخلت فلسطين عصر الاستعمار وأعلن الانتداب البريطاني

عليها في عام 1341هـ 1922م بظروف انتهت بإعلان قيام دولة إسرائيل على جزء عزيز من أرض فلسطين في 6 رجب 1367هـ - 15 مايو 1948م.
وفى خضم هذه الأحداث كان لعلماء المسلمين سواء من الأزهر الشريف أو هيئة كبار العلماء أو من دار الإفتاء المصرية أو حتى المفتون الاهليون في مصر دورًا كبيرًا فى مواجهة سياسة الاستيطان والتحذير من خطر هذا الاحتلال وتصدوا بالفتاوى الشرعية للدفاع عن الأراضي الفلسطينية.
وكان للمؤسسات الدينية الرسمية في مصر دور الريادة منذ بداية الصراع الصهيوني فى الشرق الأوسط والتي عملت على توعية الرأي العام العربي والإسلامي بحقائق الأمور سواء بالفتاوى التي تحض المسلمين على أتباعها وتنفيذها، لما للفتاوى من قبول وإجماع عند المسلمين ، أو من خلال المؤتمرات الحاشدة أو من خلال خطب الجمعة والدروس الجامعة في المساجد، أو من خلال المؤلفات التي توضح فلسفة الصراع وأدواته السياسية .
فقد اجتمعت هيئة كبار العلماء في 22 جماد الآخر 1357 هـ - 18 أغسطس 1938 لبحث المسألة الفلسطينية واستعرضت حالتها ما يجري فيها من التصادم ، وقررت جماعة كبار العلماء ما يلي :
1- الاحتجاج على استمرار مشروع التقسيم على أية صفة يجري عليها التقسيم، والمطالبة بأن تبقى للبلاد صفتها العربية الإسلامية والمحافظة على كيانها القومي.

2- تدعو جماعة كبار العلماء زعماء بلاد الإسلام إلى التكاتف واتخاذ ما يرونه مفيدا من الطرق المختلفة؛ للمحافظة على فلسطين، وعلى إيجاد حل ينهي هذه الحالة السيئة ليسود السلام بين الأمم .

3- تدعو جماعة كبار العلماء المسلمين إلى تذكر قضية فلسطين ليلة الإسراء والمعراج، وأن يتوجهوا بالدعاء إلى الله سبحانه في تلك الليلة بأن يحفظ هذه البلاد مما يراد بها، وأن يحفظ الآثار المقدسة في الأقطار العربية القريبة والبعيدة([1]).

مع زيادة معدلات الهجرة الصهيونية إلي الأراضي الفلسطينية ، ازداد تدفق الاموال لسكان المهاجرين وشراء الأراضي لهم وذكر بن جوريون ([2]) انه في عام 1935م نجح المجلس التنفيذي للمنظمات الصهيونية في شراء امتياز مدينة الحولة وكانت من قبل ملكا لوجهاء من العرب .
وذكر وايزمان ([3]) ذلك بشيء من التوضيح والتحديد حيث قال أن الصهيونية عمدوا إلي شراء مساحات واسعة من عدد من الإقطاعيين اللبنانيين والسوريين الذين يملكون اراضي في فلسطين وقد بلغ مقدار الصفقة الاولي قرابة ثمنيه آلاف دونم تم شراؤها من عائلات سرسق اللبنانية ([4])
ويلاحظ ان بيع الارض لم يكن من خلال السكان الأصليين أي الفلسطينيين ـ الملاك الحقيقيون للأرض ـ فكلام وايزمان هنا يشير إلي أن معظم الأراضي التي بيعت كانت ملكا للإقطاعيين اللبنانيين او السوريين الذين يملكون أرض في فلسطين ومن ثم كان البقية التي تترك من الأراضي داخل هذه الإقطاعيات للفلسطينيين يجبر اصحابها على بيع

([1]) زوات عرفان المغربي : "هيئة كبار العلماء 1911 – 1961"، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سلسلة تاريخ المصريين رقم 292، ص276 و277.

[2] دافيد بن غوريون؛ (1886 - 1973)، أوّل رئيس وزراء لإسرائيل.

[3] حاييم وايزمان (1874 - 1952) أول رئيس لدولة إسرائيل عام 1949م يعد أشهر شخصية صهيونية بعد تيودور هرتزل (الداعي الاشهر لتأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين) لعب الدور الأهم في استصدار وعد بلفور نوفمبر 1917م ، كان رئيسا للمنظمة الصهيونية العالمية منذ عام 1920 حتى عام 1946.

[4] Weizmann,ch,:Trail and Error.p.316,17.

ارضيهم لليهود سواء عن طريق التهديد او السيطرة علي بعض رؤوس الأموال او افتعال المشاجرات والاغتيالات لكي يترك اصحاب الأرض الاصليين اراضيهم وبيعها او هجرتها([5]).

وفي مقدمة كتابه حول التطهير العرقي الإسرائيلي للفلسطينيين ([6]) (The Ethnic Cleansing of Palestine) قام بترجمتها الباحث محمد ثابت ([7]) فيقول في تلك الفترة وما تلاها ، يتحدث إيلان بابي حول دور تلك العصابات المسلحة، مثل المليشيات الصهيونية الهاغاناه شبه العسكرية التي امتلكت السيطرة خلال فترة الانتداب البريطاني في فلسطين بين عامي 1920 و 1948 عندما ظهرت الدولة اليهودية. ويشرح بالتفصيل كيف التقى ديفيد بن غوريون، أول رئيس وزراء إسرائيلي، مع قادة صهاينة وضباط عسكريين يهود في 10 مارس 1948 لوضع اللمسات الأخيرة على خطط التطهير العرقي لفلسطين التي تكشفت في الأشهر التي تلت ذلك بما في ذلك وعلى نطاق واسع: التخويف؛ فرض الحصار والقصف على القرى والمراكز السكانية؛ وإشعال النار في المنازل والممتلكات والسلع؛ والطرد؛ والهدم؛ وأخيراً زرع الألغام بين الأنقاض لمنع أي من السكان المطرودين من العودة. كل ذلك جرى كما يؤكد بابي تحت غطاء أكذوبة بيع الفلسطينيين لأراضيهم ومغادرتهم البلاد طوعا.

---

[5] حول هذا الموضوع تقول الشاعرة الفلسطينية فدوي عباس ابنة الأديب والمفكر الفلسطيني "فؤاد عباس" رئيس فرع الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين بمصر، ومؤسس إذاعة "صوت فلسطين – صوت منظمة التحرير الفلسطينية من القاهرة" وأحد شهود العيان على قضية بيع الاراضي لليهود فتقول "هذه من الخرافات التي روجتها إسرائيل وصدقها العرب، لقد تم تجريدنا من المال، ثم السلاح، وبدأت المؤامرة علي ارض فلسطين، أما الإسرائيليين في هذا التوقيت فكانوا يأخذون التعويضات من ألمانيا من اجل الهولوكوست المزعوم ؛ لذلك اقتصادها كان قوى.. هذا لم يضعف قوة الفلسطينيين علي الارض، وأكبر دليل على قوتهم وقدرتهم على اهتزاز اقتصاد إسرائيل هي الانتفاضة الثانية عام 1987م. انظر نجلة رئيس اتحاد كتاب فلسطين لموقع "أمان": الجيش دافع عن عروبة القدس ولا صحة لصفقة القرن ، http://www.aman-dostor.org/8488

[6] The Ethnic Cleansing of Palestine, Ilan Pappé, One World Oxford.2006 -

[7] باحث متخصص في الترجمات السياسية وله مقالات متخصصة في هذا الشأن .

كانت تلك العمليات تتوافق مع الخطة التي أعلنها بن غوريون أمام الوكالة التنفيذية اليهودية عام 1938 حول أن هذه الحرب ستكون بلا رحمة، وتتضح وحشية بن غوريون في تأكيده على أن الطرد والتطهير العرقي الذي جرى لمئات الآلاف من الفلسطينيين شيء مبرر تماما وأنه لايرى في ذلك ماينافي الأخلاق!!! وشمل ذلك الطرد القسري لمئات الآلاف من العرب الفلسطينيين غير المرغوب فيهم، في المناطق الحضرية والريفية. مصحوباً بعدد غير معروف من المذابح الجماعية لإنجاز ذلك. كان الهدف بسيطًا ومباشرًا وهو إنشاء دولة يهودية حصرية بدون وجود عربي بأي وسيلة بما في ذلك القتل الجماعي.

وكانت القدس ضحية كبيرة وفي مقدمة المنكوبين بتلك الأعمال، ففي القدس وتل أبيب وحيفا دُمرت 11 ضاحية حضرية و531 قرية طرد منها حوالي 800000 شخص، خلاف القتلى والمصابين بلا عدد.

وفي كتابه عشرة أكاذيب حول إسرائيل ([8]) يسخر إيلان من حديث موقع وزارة الخارجية الإسرائيلية أنه تدريجيا مع تقلص جودة الحكم العثماني، عانت البلاد من الإهمال واسع النطاق، وبنهاية القرن الثامن عشر كانت الآراضي مملوكة لملاك غائبين عن المكان ومؤجرة لمزارعين فقراء أعجزتهم الضرائب المتقلبة. وأصبحت غابات الجليل وجبل الكرمل منزوعة الأشجار، والصحراء تزحف وتتغول على الأراضي الزراعية. وأمست فلسطين في القرن الثامن عشر وفقا لتلك الرواية صحراء جرداء.

من المثير للسخرية، على حد تعبير إيلان، أن واضع تلك الرواية المختلقة كليا لم يحاول اللجوء إلى أحد من الأكاديميين اليهود ليحكم له جوانب الأكذوبة السخيفة، فمعظم هؤلاء الأكاديميين كانوا سيترددون في قبول الانخراط في مثل هذه الخرافة. كما أن بعض المؤرخين والأساتذة اليهود، أمثال الديموغرافي "دافيد غروسمان" و"أمنون كوهين" و"يوشوا

[8] - Ten Myths About Israel, Ilan Pappe, Verso, May 2, 2017.

بن أريه" قد تصدوا بنجاح لتلك الخرافة، وأثبتت بحوثهم أن فلسطين عبر القرون الماضية لم تكن صحراء أبدا، بل على العكس تماما كانت مجتمعا عربيا مزدهرا ومسلما في غالبيته، معظمه مكون من الريف؛ لكن به أيضا مراكز حضرية نابضة بالحياة.

وكانت النتيجة المتوقعة من انتقال الأراضي العربية من ايدي اصحابها إلي أيدي العناصر الصهيونية أن اصبحت هذه الارض قطعة مستقلة من البلاد وبالتالي لم يعد في وسع العربي الفلسطيني ان يجني منها أية منفعة ، حيث لم يبق له اي أمل في استئجارها او فلاحتها ([9]).

فتوى الشيخ مخلوف وتحريم بيع الارض

وتعد فتوى فضيلة الشيخ حسنين محمد مخلوف ([10]) مفتي الديار المصرية من أهم وأدق الفتاوى التي تحدثت عن عدم جواز بيع الأرض للأعداء وكانت بعنوان "وجوب استنقاذ فلسطين بالنفس والمال" والتي أوجب فيها استنقاذ فلسطين بقوة السلاح، حيث سؤال فى الجزء الثاني من الفتاوى الشرعية ([11]) رقم (15) عن رجل مسلم يملك قطعة أرض فضاء داخل البلدة التي يقطنها ، طمع يهوديي فى شرائها ليقيم عليها دارا للسينما تدر عليه ربحا وفيرا ، فهل يجوز له بيعها ؟

ونلاحظ ان السؤال لم يتحدث عن اصحاب الأرض الأصليين كما يردد البعض من ان الفلسطينيين باعوا ارضهم لليهود ولكن نلاحظ ان السؤال عن رجل مسلم يملك قطعة من الارض يقطنها(ولم يحدد السؤال فلسطيني ام غير ذلك) وكان ختام رد الشيخ على السائل كان حاسمًا فقال " ومن هذا يعلم السائل وغيره أنه لا يجوز بيع ارضه لليهودي، لأنه

---

[9] د محمد علي حلة : الثورة الفلسطينية الكبرى (1936- 1939)، الهيئة العامة المصرية للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين رقم 305، ص 134- 135

[10] حسنين محمد مخلوف : مفتي الديار المصرية وعضو هيئة كبار العلماء ـ الفتاوي الشرعية وبحوث إسلامية ـ الطبعة الثانية 1385هـ ـ 1965م، مطبعة الباب الحلبي ، الجزء الثاني ص 161- 164

[11] مرفق في اخر البحث نص فتوى الشيخ حسنين محمد مخلوف كما وردت في مؤلفه " الفتاوى الشرعية" .

مظنة الإضرار بجماعة المسلمين عامة ، وقد علمت أن اليهود عصبة واحدة ، وانهم جميعا صهيونيون يدينون لإسرائيل بالكيد للعرب والمسلمين بشتي الوسائل ، وفى أقل الاشياء وأحقرها فضلا عن اكثرها وأعظمها ، والله اعلم ([12]).

فتوى الشيخ محمد رشيد رضا

ومن الفتاوى التي تحرم بيع أرض فلسطين وما حولها فتوى الشيخ محمد رشيد رضا([13]) التي نصت على أن من يبيع شيئا من أرض فلسطين وما حولها لليهود أو الإنجليز فهو كمن يبيعهم المسجد الأقصى وكمن يبيع الوطن كله لأن ما يشترونه وسيلة إلى ذلك وإلى جعل الحجاز على خطر فرتبة الأرض من هذه البلاد هي كرقبة الإنسان من جسده وهي بهذا تعد شرعا من المنافع الإسلامية العامة لا من الأملاك الشخصية الخاصة، وتمليك الحربي لدار الإسلام باطل وخيانة لله ولرسوله ولأمانة الإسلام ولا أذكر هنا كل ما يستحقه مرتكب هذه الخيانة ، وإنما أقترح على كل من يؤمن بالله بكتابه وبرسوله خاتم النبيين أن يبث هذا الحكم الشرعي في البلاد مع الدعوة إلى مقاطعة هؤلاء الخونة الذين يصرون على خيانتهم في كل شيء : المعاشرة والمعاملة والزواج والكلام حتى رد السلام([14]).

فتوي الشيخ عبد المجيد سليم

([12]) فتاوى كبار علماء الأزهر حول تحريم فلسطين والأقصى الشريف: تقديم جماعة من العلماء، القاهرة : دار اليسر1432هـ 2011م، ط1، ص85 و59.

[13] محمد رشيد بن علي رضا ولد 27 جمادى الأولى 1282 هـ/23 سبتمبر 1865 في قرية "القلمون (لبنان)"، وهي قرية تقع على شاطئ البحر المتوسط من جبل لبنان وتبعد عن طرابلس الشام بنحو ثلاثة أميال، وتوفي بمصر في 23 جمادى الأولى 1354 هـ/22 أغسطس 1935م.
ويعتبر محمد رشيد رضا مفكراً إسلامياً من رواد الإصلاح الإسلامي الذين ظهروا مطلع القرن الرابع عشر الهجري. وبالإضافة إلى ذلك، كان صحفيا وكاتبا وأديبا لغويا. هو أحد تلاميذ الشيخ محمد عبده. أسس مجلة المنار على نمط مجلة "العروة الوثقى" التي أسسها الإمام محمد عبده.

([14]) محمد ابراهيم ماضي : "صراعنا مع اليهود بين الماضي والمستقبل" ، القاهرة: دار التوزيع والنشر الإسلامية ، 1992، ص 106 ،112.

وقد تحدث الشيخ عبدالمجيد سليم ([15]) شيخ الأزهر ومفتي الديار المصرية في فتوى أخرى شهيرة عن تحريم اتخاذ اليهود أولياء واعتبر ذلك من أعظم الجرائم، وقال "لقد شاع واستفاض بين الناس عامتهم وخاصتهم خبر غزو اليهود الصهاينة للبلاد المقدسة فلسطين، والتي تضم أولى القبلتين وثالث الحرمين وغير ذلك من المقدسات الأخرى، وعزمهم المصمم على تحويلها لمملكة يهودية والاستيلاء على أراضيها ومقدساتها وإخراج أهلها العرب منها. وقد شدد الله النكير على من يتولى أعداء الدين أو يتخذون لهم بطانة من غير المؤمنين، قال تعالى : يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا ..
وقال تعالى : يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا .. ومن يستبيح شيئا من هذا بعد أن استبان له حكم الله فيه يكون

[15] الشيخ عبد المجيد سليم ولد في قرية «ميت شهالة»، وهي تابعة لمدينة الشهداء بالمنوفية في1 ذو الحجة 1299هـ . 13 أكتوبر سنة 1882م،وحفظ القرآن وجوده، ثم التحق بالأزهر، وكان متوقد الذكاء مشغوفًا بفنون العلم، متطلعًا إلى استيعاب جميع المعارف.

وفي 2 من ذي الحجة سنة 1346هـ الموافق 22 من مايو سنة 1928م ، عُين فضيلته مفتيًا للديار المصرية، وظل يباشر شؤون الإفتاء قرابة عشرين سنة، ومن خلال هذه الفترة الطويلة في الإفتاء ترك فضيلته لنا ثروة ضخمة من فتاوه الفقهية بلغت أكثر من (خمسة عشر ألف) فتوى.

تولى مشيخة الأزهر أول مرة في 26 من ذي الحجة سنة 1369هـ الموافق 8 أكتوبر سنة 1950م، ثم أعفي من منصبه في 4 سبتمبر سنة 1951م لاعتراضه على الحكومة عندما خفضت من ميزانية الأزهر، ثم تولى المشيخة للمرة الثانية في 15جماد أول1371هـ. 10 فبراير سنة 1952م، واستقال في 28ذو الحجة 1371هـ. 17 سبتمبر سنة 1952م.

وعند الاطلاع علي سجلات الشيخ عبد المجيد سليم وجدنا ان بها ١٥٧٩٢ فتوى والتي شغلت الفترة ما بين١٣٤٦-١٣٦٤هـ /١٩٢٨-١٩٤٥م ، وكان أكثرها فتاوى الوقف والميراث وبعض القضايا المتفرقة ، وقد لاحظنا ان فترة الشيخ عبد المجيد سليم فترة كبيرة جدا ، والتي تشغل من سجل ٣٠ إلي سجل ٤٩ وهي تعد فتاوى كبيرة جدا بالنسبة إلي فتاوى المفتين الأخرين في فترة الدراسة توفي الشيخ في 7 أكتوبر سنة 1954م الموافق 10 من صفر سنة 1374هـ انظر رسالتي للماجستير عن الفتوى والمجتمع المصري في النصف الاولي من القرن العسرين، جامعة القاهرة قسم التاريخ غير منشورة المقدمة ص12 ،أنظر جاكوب سكوفجارد . بيترسون ، اسلام الدولة المصرية، مفتو وفتاوى دار الإفتاء ، ترجمة اد السيد عمر ، دار نهوض للدراسات والنشر ، ص 493

مرتدا عن دين الإسلام، فيفرق بينه وبين زوجه ويحرم عليه الاتصال بها، ولا يصلي عليه ويدفن في مقابر المسلمين وعلى المسلمين أن يقاطعوه فلا يسلموا عليه ولا يعاودوه إذا مرض، ولا يشيعوا جنازته إذا مات حتى يفيء إلى أمر الله ويتوب توبة تظهر آثارها في نفسه وأحواله وأقواله وأفعاله([16]) .

هذا بخلاف العديد من الفتاوى التي صدرت من شيخ الجامع الأزهر ومفتي الديار المصرية، ولجنة الفتوى بالأزهر عام 1368 هـ - 1948 م ، ومن ذلك الفتوى التي صدرت من شيخ الجامع الأزهر وكبار علمائه وعلى رأسهم جماعة كبار العلماء من وجوب الجهاد في سبيل الله لإنقاذ فلسطين والأراضي المقدسة من خطر الصهيونية، وقد كانت هذه الفتوى بمثابة نداء للمسلمين عامة، يدعوهم فيها شيخ الأزهر والعلماء أن يردوا هذا البغي وأن يقاطعوا هؤلاء اليهود في تجارتهم ومعاملاتهم وأن يعدوا كتائب الجهاد، وأن يقوموا بما فرض الله عليهم لنصرة قضايا المسلمين([17]) .

فتاوى الحرب

([16]) وردت هذه الفتوى بمجلة الفتح المصرية لمحب الدين الخطيب ، العدد 846، العام السابع عشر، ص10، وقد صدر أوّل عددٍ من مجلة "الفتح" في يوم 29 ذي القعدة من عام 1344هـ، الموافق 10 يونيو 1926م، وتسلّم رئاسة التحرير فيها الشيخ الأزهري عبد الباقي سرور، ثم بعد ذلك تولى دفّتها الأستاذ محب الدين الخطيب رحمهما الله حتى إغلاقها.

كانت المجلّة في موضوعاتها ومادّتها الإعلامية سيفاً مصلتاً في نحور دعاة الغزو الفكري والتغريب والتنصير والاستشراق والاهتمام بالقضية الفلسطينية ، هذا إلى جانب اهتمامها بأحوال المسلمين في كل مكان، فسدّت بذلك ثغرةً كبيرةً رغم إمكانياتها المتواضعة، وضيق هامش الحرية الممنوح لها، فكانت مجلة "الفتح" بحق منبراً حراً أصيلاً لا نظير له، بفضل الروّاد والعمالقة من أمثال: أحمد محمد شاكر، وأخيه: محمود، وشكيب أرسلان، ومصطفى صادق الرافعي، وشيخ الإسلام في الدولة العثمانية: مصطفى صبري، ومحمد الخضر حسين، وعلي الطنطاوي، وتقي الدين الهلالي، وغيرهم ممن طرّزوا حواشي هذه المجلة بإبداعاتهم، وآثارهم القيّمة.

([17]) جواد رياض . منصور مندور : "الأزهر وفلسطين سيرة وفتوى" ، تقديم رفعت سيد أحمد، القاهرة : منتدى العلماء بمركز يافا للدراسات والأبحاث، 1422 هـ 2002م ، ص17- 24

وكان علماء الازهر يدركون أهمية مفهوم الامة العربية لذلك لم تقف مجهوداتهم في التصدي فقط للقضية الفلسطينية باعتبارها قضية مركزية فقد كانوا يعون أن النيل من فلسطين والقدس نيل من أي أمة عربية وإسلامية أخري لذلك عندما حدث العدوان الإسرائيلي علي فلسطين عام (1368هـ - 1948م) انتفض الازهر الشريف و اصدر شيخه بالتعاون مع مفتي الديار المصرية ولجنة الفتوى وكبار العلماء فتاوى تدعو إلي الجهاد في سبيل الله ورفع راية الجهاد لإنقاذ فلسطين والاماكن المقدسة وافتي حينها الشيخ حسنين محمد مخلوف مفتي الديار بان التطوع لفلسطين جائز بل واجب شرعي ، ومن ترك هذا الواجب كان آثما ، كما اصدرت لجنة الفتوى بالأزهر برئاسة الشيخ عبد المجيد سليم فتوى تحرم بيع أرض فلسطين لليهود .

ولم يقف دور الأزهر علي الفتاوى بل قامت هيئة كبار العلماء بجمع مبلغ وقدره 27000جنية لإيواء اللاجئين من فلسطين ، واعلنت أنها ستستمر فى جمع المزيد من الأموال من أجل إنقاذ فلسطين ([18]) .

لذلك لما حدث العدوان الثلاثي على مصر (1375هـ/1956م)، لم يقف دور الأزهر الشريف مقصورًا على الاستنكار والإدانة، وإصدار البيانات، لم يعرف عن الأزهر موقف الاستكانة او الحياد بل كان دورًا وطنيًّا عروبيا اسلاميا سجله التاريخ في صفحات الأزهر المشرقة، ومواقفه الخالدة.

فقد قام الأزهر بتجريد كتائب من علماء الأزهر وطلابه لمقاومة العدوان بجانب جيش التحرير، وقد حرص شيخ الأزهر - الشيخ عبد الرحمن تاج- على توديع الكتائب الأزهرية عند سفرها إلى ميدان المعركة، وخطب فيهم قائلاً:

[18] أحمد ربيع الأزهري : من المواقف الخالدة لعلماء الأزهر الشريف ،الطبعة الأولي ،دار كشيدة للنشر والتوزيع، ص 288إلي 293

«أيها المؤمنون المجاهدون؛ أنتم على الحق وأعداؤكم على الباطل، وأنتم بالحق مؤمنون وهم للحق كارهون جاحدون، فأنتم تدافعون عن دياركم ووطنكم، وهم معتدون باغون عليكم، فثقوا بعدالة الله، وأيقنوا بنصر الله، فالله يغار على عباده المؤمنين، وقد كتب التأييد والنصر والعزة للمجاهدين الصابرين».

ولم يكتف شيخ الأزهر بذلك، بل توجه إلى الجيش في الميدان يهنئ فوزهم الذي أحرزوه في تلك الساعة، وبشرهم بأن نصر الله قريب, لأنهم على الحق ([19]).

وبعد ان تعرض المسجد الأقصى لحريق ضخم في 21أغسطس عام 1969م انتفض الازهر من جديد ليس بالشجب والإدانة فقط بل والدعوة لتحرير المسجد من ايدي اليهود واخرج الشيخ محمد محمد الفحام شيخ الأزهر([20]) كتاب بعنوان" المسلمون واسترداد بيت المقدس"([21]) والذي يعد كخريطة طريق في هذا الشأن .

لم يسلم الازهر رغم ذلك من بعض الاتهامات وقد اعتبرته التيارات الدينية المتشددة معولا لهدم الإسلام وهدم دوره في المجتمع ومن ثم وراء كل شرعنه لأفعال السلطة وإيجاد التأويلات الدينية التي وضعت

---

[19] نفسة ، ص 289

[20] ولد الشيخ محمد محمد الفحام، في 18 سبتمبر 1894، في محافظة الإسكندرية، إلا أن أصوله تعود إلى قرية بني مر بمحافظة أسيوط، نفس القرية التي تمتد إليها جذور الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، والمفارقة هنا في أن كليهما ولد بالإسكندرية وجذورهما تعود لنفس القرية، وأيضًا أصبح شيخًا للأزهر في عهد عبد الناصر.

عمل بالتدريس في كلية الشريعة عام 1935 حيث درس مادة المنطق، ثم حصل على الدكتوراه من السوربون في عام 1946م، ثم عمل فور عودته من البعثة مدرسا بكلية الشريعة، وعمل أيضًا مدرسا للأدب المقارن والنحو بكلية اللغة العربية، وانتدب لكلية الآداب جامعة الإسكندرية، ثم عين عميدا لكلية اللغة العربية في عام 1959، واختير عضوا في مجمع اللغة العربية في عام 1972م ، أصدر الرئيس جمال عبد الناصر، قرارًا جمهوريًا باختيار الدكتور محمد الفحام شيخًا للجامع الأزهر في 17 سبتمبر 1969م، وظل في منصبه حتى استقال عام 1973 لظروف صحية، إلى أن توفي في 31 أغسطس عام 1980.

[21] الكتاب التاسع عشر ـ مجمع البحوث الإسلامية ، جماد الأخرة 1390هـ ـ أغسطس 1970م ـ سلسلة البحوث الإسلامية .

تحت مسمي" الإسلام الرسمي الوسطي" وخاصة بعد اتفاقية كاب ديفيد وهو الموقف الذي تبنته الدولة بمؤسستها الرسمية ، الأمر الذي حرم الازهر في وجهة نظرهم من استقله الفكري والسياسي والمالي وخاصة بعد تعطيل الأوقاف الخيرية في عصر الرئيس عبد الناصر ([22]) .

ومن هنا تغافل البعض عن فتاوى الأزهر والتي رفضت الصلح مع اسرائيل سابقًا وأهالت هذه التيارات التراب علي كل المواقف التي تبنها الأزهر لصالح القضية الفلسطينية عبر عشرات السنوات الماضية ولم يعقد أحد حتي مقارنة بسيطة بين فتاوى الشيخ جاد الحق على جاد الحق شيخ الأزهر عن جواز الصلح مع اسرائيل عام 1979م وفتوى الشيخ حسن مأمون ([23])شيخ الأزهر والمفتي حول رفض الصلح مع اسرائيل في سياق مختلف تماما عام 1956م .

ونستطيع هنا ان نستعرض الفتوتين والمواقف التاريخي لكل منهما وتأثيرهما على الواقع الإسلامي والسياسي في ذلك الوقت فحول قضية الصالح مع إسرائيل فتوى هامة اصدرها فضيلة الشيخ حسن مأمون بتاريخ جمادى الأولى 1375 هجرية - 8 يناير 1956 برقم (1114) حول الصلح مع اليهود والمعاهدات مع الدول المعادية.

جاء بها أن هجوم العدو على بلد إسلامي يوجب على أهلها الجهاد ضده بالقوة، وهو فى هذه الحالة فرض عين، يتعين الجهاد فى ثلاثة أحوال عند

---

[22] مصطفي عبد الظاهر : الوسطية كأيديولوجية . دور الازهر في نشأة القومية المصرية ، منتدي العلاقات الدولية ، بحث منشور على الشبكة العنكبوتية ص 10

[23] حسن مأمون (1894م- 1973م) هو شيخ الأزهر ومفتى الديار المصرية الأسبق ، عُين موظفاً قضائياً بمحكمة الزقازيق الشرعية في 4 أكتوبر سنة 1919م، وفي أول يوليو سنة 1920 م نقل إلى محكمة القاهرة الشرعية، وظل يترقى في القضاء الشرعي حتى صدر مرسوم ملكي بتعيينه قاضياً لقضاة السودان في 3 من يناير سنة 1941م. في 16 فبراير سنة 1955م اقترح وزير العدل على مجلس الوزراء إسناد منصب المفتي إليه للانتفاع بعلمه الغزير وكفاءته الممتازة، فوافق مجلس الوزراء على تعيين فضيلته مفتياً للديار المصرية اعتباراً من أول مارس سنة 1955 حتى سنة 1964 م، وبعدها تولى فضيلته مشيخة الأزهر بالقرار الجمهوري رقم 2444 لسنة 1964 م.

التقاء الزحفين، وعند نزول الكفار ببلد، وعند استنفار الإمام لقوم للجهاد حيث يلزمهم النفير.

ونصت الفتوى على أن الاستعداد للحروب الدفاعية واجب على كل حكومة إسلامية لما فعله اليهود بفلسطين من اعتداء على بلد إسلامي يوجب على أهليه أولا رده بالقوة، كما يوجبه ذلك ثانيا على كل مسلم فى البلاد الإسلامية.

كذلك إن الصلح مع العدو على أساس رد ما اعتدى عليه إلى المسلمين جائز، أما إن كان على أساس تثبيت الاعتداء فهو باطل شرعا وعليه فإن موادعة أهل الحرب أو جماعة منهم جائزة شرعا، ولكن بشرط أن تكون لمدة معينة، وأن يكون فيها مصلحة للمسلمين، فإن لم تكن فيها مصلحة فهى غير جائزة بالإجماع لقوله تعالى { وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله } وإن كانت مطلقة ، لكن إجماع الفقهاء على تقييدها برؤية مصلحة للمسلمين في ذلك أخذا من قوله تعالي (ولا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون) المعاهدات التى يعقدها المسلمون مع دول أخرى غير إسلامية جائزة شرعا إذا كانت فيها مصلحة للمسلمين، أما إذا كانت لتأييد دولة معتدية على بلد إسلامي فإنها تكون تقوية لمن اعتدى ، وذلك غير جائز شرعا، وبخصوص اليهود فى فلسطين فلهم موقف خاص، فهم موجودون بها بحكم سيأسى و الهدنة التى فرضتها الدول على الفريقين، ونزلت الحكومات الإسلامية على حكمها إلى حين وجود حل عادل للمسألة. ما فعله المسلمون من منع السلاح والذخيرة عن اليهود بعدم السماح بمرور ناقلاتها فى بلادهم جائز ولا شىء فيه، حتى ولو كان اليهود يعتبرون ذلك اعتداء عليهم ([24]).

[24] فتاوى دار الإفتاء لمدة مائة عام البـاب من أحكام اتفاقية السلام والصلح مع اليهود لشيخ حسن مأمون .

جاءت فتوى الشيخ جاد الحق على جاد الحق ([25]) رقم (1316) في مجموع سجلات الفتوى بعنوان اتفاقية السلام بين مصر وإسرائيل وأثرها ،في 6 محرم 1400 هجرية - 26 نوفمبر 1979 والتي ملخصها

1 - الإسلام دين الأمن والسلام.

2- جنوح العدو للسلم أثناء الحرب واجب القبول

3 - المعاهدات بين المسلمين وغيرهم جائزة ويجب الوفاء بها ما لم يطرأ ما يقتضى نقضها.

4 - بدء المسلمين بالصلح جائز ما دام ذلك لجلب مصلحة لهم أو لدفع مفسدة عنهم.

5 - قبول المسلمين لبعض الضيم جائز ما دام فى ذلك دفع لضرر أعظم.

6- نصوص اتفاقية السلام وملحقاتها لم تضيع حقا ولم تقر احتلالا.

7 - ما كان لقلة من العلماء أن تنساق أو تساق إلى الحكم بغير ما أنزل الله وتنزل إلى السباب دون الرجوع إلى أحكام شريعة الله .

8 - صلح الحديبية كان خيرا وبركة على المسلمين، وفى صلحنا المعاصر مع إسرائيل نتفاءل ونأمل أن يكون فتحا نسترد به الأرض ونحمى العرض، وتعود به القدس عزيزة إلى رحاب الإسلام وفى ظل السلام .

[25] الشيخ جاد الحق علي جاد الحق (15 إبريل 1917 - 16 مارس 1996)، شيخ الأزهر ومفتي للديار المصرية عُيِّن في رمضان 1398 هـ / أغسطس 1978 مفتي للديار ، اول من عمل على اختيار الفتاوى ذات المبادئ الفقهية، وجمعها من سجلات دار الإفتاء المصرية، ونشرها في مجلدات بلغت عشرين مجلدًا، وهي ثروة فقهية ثمينة؛ لأنها تمثل القضايا المعاصرة التي تشغل بال الأمة في فترة معينة من تاريخها، وفي الوقت نفسه تستند إلى المصادر والأصول التي تستمد منها الأحكام الشرعية.
وتشمل اختيارات الفتاوى ما صدر عن دار الإفتاء في الفترة من سنة 1313 هـ / 1895 حتى سنة 1403 هـ / 1982، وضمت المجلدات الثامن والتاسع والعاشر من سلسلة الفتاوى اختيارات من أحكامه وفتاواه، وتبلغ نحو 1328 فتوى في الفترة التي قضاها مفتيًا للديار المصرية.

هذا هو موقف الشيخ جاد الحق في هذه الفتوى ولكن نقل عنه بعض المواقف الأخرى فقد ذكر نجل الشيخ جاد الحق "على "الأبن الاكبر لشيخ الازهر أن أئمة المساجد والوعاظ والشيوخ رددوا على المنابر بعد اتفاقية كامب ديفيد أن من ينفذ العمليات الانتحارية فى فلسطين ، يعد شهيد ويعتبرونها عمليات استشهادية فجاء أحد الوزراء للمشيخة لم يذكر اسمه وطلب من والدي أن يأمر الشيوخ وأئمة المساجد بالتوقف عن ترديد ذلك فقال له بمنتهي الحزم : با معالي الوزير أنت تقدر تمنع الصحف أنها تنشر ، ولكن أنا لا يمكن أن أجبر أحد على أن يجيب عن سؤال أو يصدر فتوى .. هم شهداء شهداء ([26]).

واعتبر بعض الباحثين أنه منذ سنة 1948م كان الأزهر يعتمد آلية الدعوة إلي الجهاد للمطالبة بتحرير الأراضي الفلسطينية المحتلة ويراعي باستمرار موقفا هو في الحقيقة موقف الحكومة المصرية، ومن هؤلاء الباحثة مليكة الزغل فقد ناقشت فتوى معاهدة السلام مع اسرائيل لشيخ جاد الحق على جاد الحق عام 1979والتي تحدثت عن الحماية الواجبة على الحاكم تجاه رعاياه والتي اوجبها القرآن الكريم والتي امرنا بالصلح مع العدو إذا رأي الأمام مصالحة المسلمين في ذلك .

ونقلت فتوى ثانية أخرجها الأزهر فى عام 1979م علي لسان وزير الأوقاف الشيخ عبد المنعم النمر وقد حرص هذه الشيخ على التوجه إلي افراد من العلماء فى البلاد الرافضة للمعاهدة دون تثبت أو مراجعة لشيء مما حفلت به كتب السنة أو التشريع وكرر الاستدلالات الذي قام به شيخ الأزهر وايد الشيخ عبد الحليم محمود والشيخ بيصار هذه الفتاوى ومن هنا كما تقول الباحثة الزغل فقد اولي النظام السياسي بعدها اهمية سياسية

[26] في ذكر ميلاد شيخ الازهر الاسبق : أهالي قرية الشيخ " جاد الحق ط يطالبون إحياء ذكراه ، المصري اليوم ، الجمعة 2010/4/23م

متزايدة للعلماء لكي يستفيد منهم أمام المعارضين للنظام والوقف بجانب السلطة في ذلك الوقت ([27]) .

ويناقش المستشار طارق البشري هذه القضية بكل ابعادها فيقوله نحن اليوم فى عملية الإفتاء الإسلامي نواجه جماعات كثيرة من المفتين لا يتصل بهم الواقع إلا عن طريق السائل ، وهنا يستطيع السائل ان يتحكم بقدرة المفتي على الإفتاء بقدر ما يصور له من الواقع .

وقد حدثت فتاوى في الزمن الماضي لها تطبيقات مختلفة في واقعها المماثل وقد اورد المستشار البشري مثلا تطبيقيا علي طرق معالجة الفقهاء لبعض هذا الفتاوى فبنسبة لقضية فلسطين إذا كان الشيخ حسن مأمون شيخ الازهر قد أصدر فتوى عام 1956م حينما كان المفتي وصار شيخا الأزهر بضرورة الحرب ثم جاءت فتوى الشيخ جاد الحق علي جاد الحق مفتي الجمهورية فى الثمانينات بجواز الصلح ، ولا خلاف بين الشيخين رغم التناقض في الفتوى إذ ان التناقض لم كن مصدره فهم النص ، وإنما فيما صور لكل منهما من واقعة ، فى الزمن الذي طلب فيه الفتوى ، ولهذا يتوجب أن ننظر في امر أننا نستفتي مفتيا لأا تكون لديهم القدرة على الاستقلال بتصور الواقعة التي يفتون فيها ، لذلك كان الشيخ محمد بخيت مفتي الدار المصرية في العشرينيات من القرن الماضي يتحفظ فيقول " إذا كان الحال وفق المقال فالحكم كذا .." ذلك حتي يخلص نفسه من موضوع الواقعة ، لا يتحمل مسؤولية التصور غير الصحيح للواقعة .

وهذا الأمر نفسه حدث في الفتاوى المتضاربة التي حدثت في أزمة الخليج سنتي 1990ـ 1991؛ إذ كانت كل منها تعكس في مفهومها اختلافاً في التصور الواقع الذي صدر عنه الوصف الفقهي للواقعة

[27] مليكة الزغل : حراس الإسلام علماء الازهر في مصر المعاصرة ، ترجمة ناجية الوريمي ، مراجعة فوزي البدوي ، المركز الوطني للترجمة تونس ، 290- 291

المحسوبة فإذا كان السؤال «ما رأيك في جنود مستعمرين لبلدنا؟»، تكون الإجابة «إن ذلك حرام»، أما إذا كان السؤال «ما رايك في جنود الحلفاء الذين يدفعون عن حوزتنا؟»، فسيكون الإجابة «إن ذلك حلال»؛ لذلك قيل إن السؤال نصف الجواب، بل ربما السؤال ثلاثة أرباع الجواب أو حتى تسعة أعشار الجواب.

ومن ذلك تبين لنا خطوات العملية الفنية التي يتبعها رجال الفقه أو القانون في مجال التطبيق ، فالتطبيق الفقهي أو القانوني يعني وصل النص بالواقع أو إنزال النص علي واقع معين لبيان وجه الشرعية في هذا الواقع أو ترتيب الاثار التي تنجم عن هذا الواقع من حيث المركز القانونية الشرعية ومن حيث العلاقات التي تنتج والاثار المادية المعنوية التي يمكن أن تتعاقب .

مؤتمرات مناصرة القدس وفلسطين

أقيمت العديد من المؤتمرات في الأزهر الشريف لمساندة القضية الفلسطينية بكل الطرق الممكنة ومن اهم هذه المؤتمرات المؤتمر الحادي عشر لمجمع البحوث الإسلامية في مارس 1988م بعنوان شؤون الدعوة الإسلامية وبحضور رئيس الوزراء وكبار رجال الدولة ووجه نداء إلي الشعب اللبناني لوقف الاقتتال الداخلي ومساندة القضايا العربية والإسلامية ([28]).

ومؤخرا وبعد اعلن الرئيس الأمريكي دونالد ترامب في أواخر عام 2017م الاعتراف بالقدس عاصمة لإسرائيل، وأكد أنه أمر ببدء التحضيرات لنقل سفارة الولايات المتحدة في إسرائيل من تل أبيب إليها.

اتخذ الأزهر عدة إجراءات فورية اولها رفض شيخ الأزهر أحمد الطيب استقبل نائب الرئيس الأمريكي مايك بنس في لقاء كان مزمع عقده في نفس هذه الفترة ، ردا على اعتراف واشنطن بالقدس عاصمة لإسرائيل،

[28] أحمد ربيع الأزهري : من المواقف الخالدة لعلماء الأزهر الشريف" ، مصدر سابق ص290

وكان من المزمع أن يلتقي مايك بنس بمشيخة الأزهر خلال زيارته للمنطقة.
بعدها أعلن شيخ الأزهر أحمد الطيب عقد مؤتمر عالمي لنصرة القدس، يومى 17 و18 يناير 2017م بالتعاون مع مجلس حكماء المسلمين، في إطار سلسلة القرارات التي اتخذها فضيلة الإمام الأكبر، للرد على قرار نقل السفارة الأمريكية إلى مدينة القدس المحتلة وزعم أنها عاصمة للكيان الصهيوني المحتل.
فكان إعلان الأزهر العالمي لنصرة القدس والذي تضمن البنود الآتية:
أوَّلًا: يؤكد المؤتمر على وثيقة الأزهر الشريف عن القدس الصادرة في 20 نوفمبر 2011، والتي شددت على عروبة القدس، وكونها حرمًا إسلاميًّا ومسيحيا مقدسا عبر التاريخ.
ثانيًا: التأكيد على أن القدس هي العاصمة الأبدية لدولة فلسطين المستقلة والتي يجب العمل الجاد على إعلانها رسميًّا والاعتراف الدولي بها وقبول عضويتها الفاعلة في كافة المنظمات والهيئات الدولية، فالقدس ليست فقط مُجرَّد أرض محتلة، أو قضية وطنية فلسطينية، أو قضية قومية عربية، بل هي أكبر من كل ذلك، فهي حرم إسلامي مسيحي مقدس، وقضية عقدية إسلامية ـ مسيحية، وإن المسلمين والمسيحيين وهم يعملون على تحريرها من الاغتصاب الصهيوني الغاشم، فإنما يهدفون إلى تأكيد قداستها، ودفع المجتمع الإنساني إلى تخليصها من الاحتلال الصهيوني.
ثالثًا: إنَّ عروبةَ القدس أمر لا يقبل العبث أو التغيير وهي ثابتة تاريخيًّا منذ آلاف السنين، ولن تفلح محاولات الصهيونية العالمية في تزييف هذه الحقيقة أو محوها من التاريخ، ومن أذهان العرب والمسلمين وضمائرهم فعروبة القدس ضاربة في أعماقهم لأكثر من خمسين قرنًا، حيث بناها العرب اليبوسيون في الألف الرابع قبل الميلاد، أي قبل ظهور اليهودية التي ظهرت أول ما ظهرت مع شريعة موسى -عليه السلام- بسبعة وعشرين قرنًا، كما أن الوجود العبراني في مدينة القدس لم يتعد 415

عامًا، على عهد داود وسليمان -عليهما السلام- في القرن العاشر قبل الميلاد وهو وجود طارئ عابر محدود حدث بعد أن تأسَّست القُدس العربية ومضى عليها ثلاثون قرنا من التاريخ.
رابعًا: الرفض القاطع لقرارات الإدارة الأمريكية الأخيرة والتي لا تعدو بالنسبة للعالم العربي والإسلامي وأحرار العالم، أن تكون حبرًا على ورق، فهي مرفوضة رفضًا قاطعًا وفاقدة للشرعية التاريخية والقانونية والأخلاقية التي تلزم الكيان الغاصب بإنهاءٍ هذا الاحتلال وفقًا لقرارات الأمم المتحدة الصادرة في هذا الشأن، ويحذِّر المؤتمر ومن ورائه كافة العرب والمسلمين وأحرار العالم في الشرق والغرب، من أن هذا القرار إذا لم يسارع الذين أصدروه إلى التراجع عنه فورًا فإنه سيغذي التطرف العنيف، وينشره في العالم كله.
خامسًا: وجوب تسخير كافة الإمكانات الرسمية والشعبية العربية والدولية (الإسلامية، المسيحية، اليهودية) من أجل إنهاء الاحتلال الصهيوني الغاشم الظالم لأرض فلسطين العربية.
سادسًا: يدعو المؤتمر حكومات دول العالم الإسلامي وجامعة الدول العربية ومنظمة التعاون الإسلامي والأمم المتحدة ومنظمات المجتمع المدني إلى التحرك السريع والجاد لوقف تنفيذ قرار الإدارة الأمريكية، وخلق رأي عام عالمي مناهض لهذه السياسات الجائرة ضد الحقوق والحريات الإنسانية.
سابعًا: يؤازر المؤتمر صمود الشعب الفلسطيني الباسل ويدعم انتفاضته في مواجهة هذه القرارات المتغطرسة بحق القضية الفلسطينية ومدينة القدس والمسجد الأقصى المبارك، كما يحيي روح التلاحم الشعبي بين مسلمي القدس ومسيحييهم، ووقوفهم صفًّا واحدًا في مواجهة هذه القرارات والسياسات والممارسات الظالمة، ونحن نؤكد لهم من هذا المؤتمر أننا معهم ولن نخذلهم، حتى يتحرر القدس الشريف.
ثامنًا: يعتز المؤتمر بالهبَّة القوية التي قامت بها الشعوب العربيَّة والإسلامية وأحرار العالم، داعيًا إلى مواصلتها للضغط على الإدارة

الأمريكية للتراجع عن هذا القرار المجافي للشرعية الدولية، كما يحيي المؤتمر الموقف المشرِّف للاتحاد الأوروبي وكثير من الدول التي رفضت القرار الأمريكي الجائر بحق القدس، وساندت الشعب الفلسطيني.

تاسعًا: يدعم المؤتمر مبادرة الأزهر بتصميم مقرر دراسي عن القدس الشريف يُدرَّس في المعاهد الأزهرية وجامعة الأزهر، استبقاءً لجذوة قضية القدس في نفوس النشء والشباب، وترسيخًا لها في ضمائرهم، مع دعوة القائمين على مؤسسات التعليم في الدول العربية والإسلامية وفي سائر بلدان العالم، وكافة الهيئات والمنظمات الفاعلة، إلى تبني مثل هذه المبادرة.

عاشرًا: يحث المؤتمر عقلاء اليهود أنفسهم للاعتبار بالتاريخ، الذي شهد على اضطهادهم في كل مكان حلّوا به إلَّا في ظل حضارة المسلمين، وأن يعملوا على فضح الممارسات الصهيونية المخالفة لتعاليم موسى عليه السلام التي لم تدع أبدا إلى القتل أو تهجير أصحاب الأرض، أو اغتصاب حقوق الغير وانتهاك حرماته وسلب أرضه ونهب مقدساته.

حادي عشر: يعتمد المؤتمر اقتراح الأزهر أن يكون عام 2018م عامًا للقدس الشريف، ويدعو كل الشعوب بمختلف مرجعياتها وهيئاتها ومؤسساتها إلى تبنِّي هذه المبادرة، خدمة لقضية القدس بمختلف أبعادها.

ثاني عشر: يحث المؤتمر كل الهيئات والمنظمات العالمية، ويدعوها إلى الحفاظ على الوضع القانوني لمدينة القدس، وتأكيد هُويتها، واتخاذ كافة التدابير الكفيلة بحماية الشعب الفلسطيني، وخاصة المرابطين من المقدسيين، ودعم صمودهم، وتنمية مواردهم، وإزالة كل العوائق التي تمنع حقوقهم الآدمية الأساسية، وتحول دون ممارسة شعائرهم الدينية، وذلك لضمان استمرار بقائهم وتجذرهم في القدس العربية، مع حَضِّ أصحاب القرار السياسي في العالمَيْن: العربي والإسلامي على دعم ذلك كله، دون اتخاذ أي إجراء يضر بالقضية الفلسطينية، أو يصب في التطبيع مع الكيان المحتل الغاصب.

ثالث عشر: تكوين لجنة مشتركة من أبرز الشخصيات والهيئات المشاركة في هذا المؤتمر لمتابعة تنفيذ التوصيات على أرض الواقع ومواصلة الجهود في دعم القضيَّة الفلسطينيَّة وبخاصةٍ قضيَّة القُدس، وعرضها في كافة المحافل الدوليَّة الإقليميَّة والعالميَّة.

هذا؛ وللقُدْسِ ربٌّ يَحْمِيهِ ويَنْصُره وسَيَنْصُرُه إنْ شَاءَ الله ([29]).

والسَّلامُ عَلَـيْكُم ورَحْمَـةُ اللهِ وبَرَكَاتُه؛

وبعد النظر في الفتاوى التي أصدرها المفتون وعلماء المسلمين سواء من الأزهر أو هيئة كبار العلماء أولجنة الفتوى بالأزهر أو دار الإفتاء نجد أنه في هذه الفترة كان هناك إجماع على تحريم بيع الأرض في فلسطين لليهود وتحريم السمسرة على هذا البيع والتوسط فيه وتسهيل أمره، بأي شكل وصورة، وتحريم الرضا بذلك كله، والسكوت عليه، وأن ذلك كله أصبح بالنسبة لكل فلسطيني صادرا من عالم بنتيجته راض بها، ولذلك فهو يستلزم الكفر والارتداد عن الدين الإسلامي باعتقاد حله كما جاء في فتوى الشيخ عبدالمجيد سليم.

وبعد النظر والبحث في ذلك كله وتأييد ما جاء في تلك الفتاوى الشرعية، نجد أن البائع والسمسار والمتوسط في الأراضي بفلسطين لليهود والمسهل له ، أولاً: يعتبر عاملا ومظاهرا على إخراج المسلمين من ديارهم، ثانيًا : مانع لمساجد الله أن يذكر فيها اسمه وساع في خرابها، ثالثًا : متخذ اليهود أولياء لأن عمله يعد مساعدة ونصرة لهم على المسلمين، رابعًا : مؤذ لله وللرسول وللمؤمنين، خامسًا : خائن لله وللرسول وللأمانة .

وعلى ضوء مما ذكرنا يمكن القول بأن موقف الأزهر ودار الإفتاء وهيئة كبار العلماء من القضية الفلسطينية اتسم بالإيجابية منذ بداية ثورة 1355 هـ - 1936 م ،حتي الأن ولعل ذلك يرجع إلى أن الثورة

[29] أنظر الحق الفلسطيني في وجدان الازهر
http://www.azhar.eg/alquds/pager/1359452/page/2

الفلسطينية نبهت مصر والعالم العربي لخطورة الموقف في فلسطين فكان لابد أن يتحرك الأزهر بصفته أكبر هيئة إسلامية في العالم الإسلامي، وانعكس ذلك على دار الإفتاء المصرية والمفتون والمشايخ غير الرسميين([30]).

ملحق 1

نص فتوى الشيخ حسنين محمد مخلوف كما وردت في مؤلفه " الفتاوى الشرعية"

رقم (15) حرمة بيع الأراضي العربية لليهود

(السؤال) رجل مسلم يملك قطعة أرض فضاء داخل البلدة التي يقطنها ، طمع يهوديي ف شرائها ليقيم عليها داراً للسينما تدر عليه ربحا وفيرا ، فهل يجوز له بيعها ؟

(الجواب) إن السياسية اليهودية ـ في أنحاء العالم بلا مراء ـ تقوم على انتزاع البلاد العربية من اهلها ، وإجلائهم عنها بطريق التملك الفردي ، فيقدم اليهودي إلي العربي لشراء عقاره بثمن يغريه ، فيقع في الشرك ويتتم الصفقة ـ ثم يتقدم يهودي آخر إلي ملك آخر عربي بمثل ذلك ، حتي إذا أحاطوا بالقرية ورسخت اقدامهم فيها وكثر عديدهم بها ، ارغموا الباقين من العرب على الهجرة منها بشتي الوسائل الوحشية .

وهكذا ينتقلون من قرية إلي أخري حتي تسلم البلاد لهم ،فيمسي أهلها العرب وقد جردوا من أملاكهم ، وحرموا من اقواتهم ، وأجلوا من اوطانهم وشردوا في الأفاق عشرات الآلاف شر مشرد ، يعانون الجوع والعري والفاقة ويشربون كأس الذل دهاقا .

فعل اليهود ذلك في فلسطين ، يرومون تنفيذ هذه السياسية في مصر وغيرها من البلاد العربية والإسلامية ما استطاعوا إيل ذلك سبيلا ، في ضعة ومذلة ، وسكون ومسكنة ، حتي إذا تم لهم الامر ولو بعد سنين ،

([30]) زوات عرفان المغربي : مرجع سابق ، ص**280**

لبسوا جلود النمور ـ وكشروا عن انياب الشره والانتقام ، واحالوها فلسطين أخري .
وقد اعدو العدة لذلك ونحن أغفال نيام ، نخدع بمسكنتهم ونغتر بظواهر أحوالهم ، ونظن أنهم قلة لا يقدرون على كيد ، والله يعلم والتاريخ يشهد ان يهود العالم عصبة واحدة يشد ب\عضهم أزر بعض ، وينفذون كل ما ترسمه قياداتهم العامة في الوطن الذي يعيشون فيه ويقتاتون منه ، مهما اضر ذلك باهل الوطن ، نتيجة بيع الاراضي العربية لليهود .
الان وقد وضحت هذه السياسية الخبيثة الماكرة باجلي برهان ، يجب ان يكف المسلم عن بيع ملكه لليهودي مهما اغراه الثمن وإلا كان بهذا البيع معناً لألد عدو على ضياع بلاد الإسلام ، وتمكن أبغض عباد الله إلي الله من التحكم في ديار المسلمين ورقابهم واموالهم واعراضهم بأبشع صور وادنئها ، وهذه معصية ظاهرة .
إن كل ربح يناله اليهودي في بلادنا قوة له وعدة ، وإذا كان على كل يهودي في العالم قسط من مال يؤديه لإسرائيل لإعزازها وتمكينها من القضاء علي العروبة والإسلام ، لا في فلسطين وحدها ن بل فيها وفي سائر الأقطار الإسلامية ، وجب أن لا يمكن من ربح يربحه ببيع او شراء ، وإلا كان ذلك وبالا ومضرة بالمسلمين .
اليهودي يحرم على نفسه ويحرم على اهل دينه وعامة شعبه أن يخرج من جيبه مليما واحداً لمنفعة مسلم إلا إذا جر له ذلك ربحا مضاعفاً .
اليهودي يحرم على نفسه ان يسدي النصح لمسلم بما ينفعه في دنياه وان يدع مسلماً ينعم بخير دون ان ينغص عيشه ، ويمتص دمه ويستنزف ماله ومن أجل ذلك اشاعوا الربا بين المسلمين ، وقد حرصوا عليه وقد نهوا عنه ، كما اخبر الله تعالي بقوله (وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (161) سورة النساء
وقوله تعالي (وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ) المائدة 62

اليهودي يحرم على نفسه ان يبيع عربيا ومسلما شبرا من أرض فلسطين مهما بذل من ثمن ، فما بالنا قد عميت ابصارنا من هذه الحقائق ، وصمت اذاننا من سماع الانباء الصادقة من هذه الخطط الشنيعة الماكرة فيي ديارنا ، وأفسحنا لهم مكان الصدارة في اقتصاداتنا وتركناهم يتحكمون في تجارتنا واسواقنا ، وهم ألد أعدائنا كما قال تعالي (ـ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا) المائدة 82

لا تبيعو لهم ايها المسلمون شيئا من املاككم مهما بذلوا من ثمن واحذروهم في دياركم ، فغنهم اولي الناس حربا عليكم وخيانة لكم ، واعلموا أن البيع لهم معصية لله ، لما فيه من التقوية والتمكين لهم في الارض ، وذلك يسبب خطرا عظما لجماعة المسلمين ، وقد حرم بعض الائمة كل بيع اعان على معصية ، وكذلك حرم بيع عصير العنب ممن يعلم انه يتخذه خمرا ـ فعن أبي هريرة عندما ابي داود عن ابن عباس عند ابن حبان ، وعن ابن مسعود عند الحاكم ، وعن بريدة عند الطبراني في الاوسط من طريق محمد بن أحمد بن اب خيثمة بلفظ : " من حبس العنب ايام القطف حتي يبيعه من يهودي أو نصراني او من يتخذه خمرا فقد تفحم النار على بصيرة " حسنه الحافظ في بلوغ المرام ، واستدال به في المنتقي علي تحريم كل بيع أعان على معصية أ هـ من نيل الأوطار للشوكاني .

ومن هذا يعلم السائل وغيره أنه لا يجوز بيع ارضه لليهودي ، لأنه مظنة الإضرار بجماعة المسلمين عامة ، وقد علمت ان اليهود عصبة واحدة ، وانهم جمعا صهيونيون يدينون لإسرائيل بالكيد للعرب والمسلمين بشتي الوسائل ، في أقل الاشياء وأحقرها فضلا عن اكثرها وأعظمها ، والله اعلم .

حسنين محمد مخلوف مفتي الديار المصرية وعضو هيئة كبار العلماء ـ الفتاوي الشرعية وبحوث إسلامية ـ الطبعة الثانية 1385هـ ـ 1965م ، مطبعة الباب الحلبي / الجزء الثاني ص 161- 164

ألم الأرض والغربة في الرواية الفلسطينية

د. عزوز علي إسماعيل

دائمًا ما ترتبط الأرض بالغربة، سواء أكانت الغربة عن الوطن من أجل المال، أم أن الغربة عن الوطن بسبب المنفى، أو أنها كانت بسبب الاستعمار، فأصبحت الغربة مرتبطة بألم الأرض، وأصبحت الأرض مرتبطة بألم الغربة، سواء أكان في وقت السلم أم الحرب، ففي وقت السلم قد تكون محتلة من مجموعة من اللصوص أصحاب النفوذ، ففي هذا الوقت يشعر الإنسان بالاغتراب والغربة، وفي وقت الاستعمار يشعر المرء بالغربة، لأن هناك محتلاً قد أخذ أرضه، فيحاول دفع ذلك الاستعمار عن دياره، وبلده وكثيرًا ما رأينا روايات حول الغربة، والألم وعن الأرض والألم ولكن في هذه السطور سأتخذ وجهة أخرى، وهي ما علاقة الغربة بالأرض، وما هي تلك الروايات التي تناولت ذلك الأمر في القرن الماضي وحتى الآن؟ ومن هنا لا بد وأن نحصر بقدر المستطاع معظم تلك الأعمال التي تناولت الغربة والمنفى وتلك التي تناولت الأرض وما يشترك فيهما في الغربة والأرض [31]. لننطلق بعد ذلك مع بعض النماذج ونقوم بتحليلها، لنرصد ذلك الألم الموجود فيها والمرتبط بحيات

[31] روايات الغربة والألم والمنفى كثيرة جدًا منها ما ارتبط بالعلاقة بين الشرق والغرب، ومنها ما ارتبط بألم الغربة على سبيل المثال "موسم الهجرة إلى الشمال" للطيب صالح. "عصفور من الشرق "توفيق الحكيم" الحي اللاتيني " .."أمريكانلي" لصنع الله إبراهيم. "الحب في المنفى" بهاء طاهر. "أجندة مغتربة" نورة الغامدي. "إيفان الفلسطيني" مروان عبدالعال. "مهاجر سري" رشيد نيني. "شيكاغو" علاء الأسواني. "عراقي في باريس" صموئيل شمعون. " أما روايات الأرض فحدث ولا حرج منها "الأرض" عبدالرحمن الشرقاوي. "رجال في الشمس" غسان كنفاني وهي الرواية التي ارتبطت بالاثنين معًا الأرض والغربة. "مدن الملح" عبدالرحمن منيف."دنيا جات" لطيفة حليم.

الناس الاجتماعية وعلاقاتهم المختلفة مع بعضهم البعض. وأول تلك الأعمال التي صادفتني هي رواية "رجال في الشمس" للكاتب الفلسطيني غسان كنفاني، وتعتبر هي الرواية الأولى له، حاول فيها تفريغ هم الألم الذي عاشته بلده فلسطين، خاصة بعد نكبة 1948، وتشريد الفلسطينيين هنا وهناك، ليذوقوا ألم الغربة، بعيدًا عن أرضهم فارتبط من ثم ألم الغربة مع ألم الأرض المحتلة، التي أخرجوا منها، ويصف لنا الكاتب في هذا العمل الرائع شخصياته الأربع التي ذاقت ويلات المطاردة والهروب إلى أن استقر بهم الحال في الكويت مقتولين؛ أبو قيس، أسعد، مروان، أبوالخيزران، يقفون جميعًا مع ذلك المهرب الحاج رضا كي يحاول إدخالهم إلى الكويت، رغبة منهم في العمل فيها، وتكوين مال يستطيعون من خلاله سد حاجاتهم والعودة إلى وطنهم فلسطين المحتل يقول الكاتب في البدء: "هذا صوت قلبك أنت تسمعه حين لصق صدرك بالأرض. أي هراء خبيث! والرائحة إذن؟ تلك التي إذا تنشقها ماجت في جبينه ثم انهالت مهومة في عروقه؟ كلما تنفس رائحة الأرض، وهو مستلق فوقها خيل إليه أنه يتنسم شعر زوجته، حين تخرج من الحمام وقد اغتسلت بالماء البارد وفرشت شعرها فوق وجهه وهو لم يذل رطبًا الخفقان ذاته"[32]. ويعقب ذلك بفقرة عن الأرض وعظمة الأرض بقوله: "الأرض الندية – فكَّر – هي لا شك بقايا من مطر أمس... كلا أمس لم

[32] غسان كنفاني ، رجال في الشمس، دار منشورات الرمال، الطبعة الأولى قبرص، 2015. ص 7 .. علمًا بأن الطبعة الأولى منها كانت عام 1963.

تمطر! لا يمكن أن تمطر السماء الآن إلاَّ قيظًا وغبارًا.. نسيت أين أنت؟، أنسيت؟"[33]. وكانت تلك البداية في معرض حديثه عن أبي قيس، الذي أراد أن يستريح وأن يستلقي على الأرض، فتذكر رائحة أرضه التي سلبها منهم اليهود وطردوهم شر طردة، وما زلنا نعاني نحن العرب من تلك النكبة السوداء وما أعقبها من الآلام على أهلنا في فلسطين وعلينا جميعًا، فرائحة الأرض تذكره برائحة شعر زوجته حين خروجها من الحمام وبه قطرات الماء.. ولكن الأرض هنا لم تعد السماء تمطر عليها. فالألم هو ألم الفراق فراق الأرض وليس فراقًا بمحض الاختيار، بل فراقًا رغمًا عن النفس بسبب الاحتلال، الذي أضر البلاد والعباد، فأصبحوا في تيه يضربون الأرض؛ ليصلوا إلى مكان يأمنون فيه على أنفسهم.

يتفق الثلاثة مع أبي الخيزران على تهريبهم، من البصرة في العراق إلى الكويت "اقتاد مروان زميله أسعد إلى موعده مع أبي الخيزران، وصلا متأخرين قليلاً فوجدا أبا الخيزران، بانتظارهما، جالسًا مع أبي قيس فوق مقعد أسمنت كبير على رصيف الشارع الموازي للشط"[34]. ولم يجد أبو الخيزران إلا الخزان يأخذهم فيه حتى إذا ما وصلوا الحدود العراقية ينزلون في الخزان وبعدها بسبع دقائق الكفيلة بإجراء الأوراق للخروج يقوم بفتح الخزان، خاصة، أن هذا الوقت كان وقت صيف في شهر آب والحرارة في هذه المنطقة لا تطاق يعرف ذلك من عاش في تلك

---

[33] غسان كنفاني ،رجال في الشمس، ص8.

[34] رجال في الشمس ص 51.

المنطقة. ولكن الأمر إذا كان قد مر بسلام مع الحدود العراقية فإنه لم يمر بسلام مع الحدود الكويتية والتي طال فيها الوقت بسبب تلك الحكايات عن الراقصة والفحولة. وتنتهي تلك المعاناة في ذلك الحر والقيظ الشديد بموت الثلاثة في الخزان، ويصر غسان كنفاني على التأكيد على تلك الآلام بالشرح والتفصيل "انحرف بسيارته عن الطريق الأسفلت ومضى يتدرج في طريق رملي إلى داخل الصحراء. لقد قرر قراره منذ الظهيرة على أن يدفنهم واحدًا واحدًا في ثلاثة قبور.. أما الآن فإنه يحس بالتعب يتآكله فكأن ذراعيه قد حقنتا بمخدر... لا طاقة له على العمل.. ولن يكون بوسعه أن يحمل الرفش ساعات طويلة ليحفر ثلاثة قبور"[35]. إنه الألم الذي سيبقى في قلوب الكثيرين، حين يقرأون هذه الرواية ويتذكرون تلك المعاناة، التي ارتبطت بالألم الخاص بالأرض التي طردوا منها، والموت الذي حاق بهم بسبب الأرض التي أرادوا أن يصلوا إليها. فلم يستطيعوا البقاء في أرضهم "فلسطين" بسبب الاحتلال والتشريد والنكبة، وفي الوقت نفسه لم يستطيعوا الوصول إلى الأرض التي رغبوا أن يعيشوا فيها، وماتوا جميعًا في المنتصف فأصبحت معاناة وألمًا لم يسبق لهم أن رأوا مثلهما.

ونرى كذلك غسان كنفاني في عمله الثاني "ما تبقى لكم" وهو يعزف على وتر النزوح من الأرض بل الهروب من الجحيم، يحكي غسان عن

---

[35] رجال في الشمس، ص 105

التهجير من فلسطين، حيث يقتل والد حامد ومريم فيلجآن إلى غزة، وتبقى الأم طريدة إلى أن تصل إلى الأردن، وهو الأمر الذي يجعلنا ننظر إلى العنوان، ونتساءل ما الذي تبقى للأولاد من وطن أو أهل يستندون إليه بعد مقتل الوالد ونزوح الأم إلى الأردن؟ ونكابد مع كنفاني الزمن والمكان في إطار اجتماعي صرف خاصة مع قضية الشرف حين ارتكب زكريا الخطيئة مع مريم ولم يتبق لمريم الأخ الذي هرب إلى الصحراء أو ذلك الذي حملت منه وتركها أو حتى جنينها. يبدأ الكاتب العمل بتسليط كاميرعلى المكان الذي تركوه، على فلسطين الوطن على الشوارع على المدارس، على كل شيء عاشوا فيه، تركوه وهاجروا بآلام يصعب حصرها فكان انعكاس ذلك في العمل من الناحية الاجتماعية حيث تشردت أسرة كاملة، والأسرة هنا هي رمز لتشرد الوطن، وما أدراكم كيف تشرد الوطن؟ فكيف كان الارتباط بالوطن وما آلت إليه الأمور في الارتباط بالسياسة، يقول الكاتب: "عندها فقط عرف أنه لن يعود. وبعيدًا وراءه غابت غزة في ليلها العادي، غابت مدرسته بادئ الأمر، ثم غاب بيته، وانطوى الشاطئ الفضي متراجعًا إلى قلب الظلام، وبقيت أضواء الشوارع معلقة هنيهة، متعبة وواهنة، ثم انطفأت بدورها واحدًا وراء الآخر، فخطا إلى الأمام تاركًا لخطواته أن تصدر فحيحًا مخنوقًا"[36]. تاركًا الوطن وما به من ديار وأماكن عاشها، إنه الألم الذي حاق به من

[36] غسان كنفاني، ما تبقى لكم ، دار منشورات الرمال، الطبعة الثانية، 2014 قبرص، وصدرت الطبعة الأولى في عام 1966. ص 10.

كل جانب، آلام الفرقة والغربة عن الأرض التي نشأ عليها وألم اغتصاب أخته مريم من قبل زكريا ويُجبر حامد على تزويج أخته من ذلك المغتصب، ويظل يردد عبارات بعينها توحي له بالألم نحو "زوَّجْتُك أختي مريم" ثم يودع أخته مريم وذلك الإنسان، ليرحل عنهما وعن الأرض تقول مريم:" ليس لي غيره، وقد تركناه يغادرنا كلنا دون كلمة واحدة، وحين كنت أسمع أصوات خطواته تخفق، مترددة، فوق السلم حسبت أنه سيعود وكنت ممزقة بينه، هو الماضي كله، وبينك أنت ما تبقى لي من المستقبل، ولكنني لم أتحرك وأنت لم تتحرك، وهو لم يعد"[37]. وكانت الرمزية في تلك الرواية على مستوى عال فأخته المغتصبة هي أرضه المغتصبة، هي فلسطين وزوجها زكريا الذي لم يعبأ بما فعل، بل ولم يعبأ بحامد ولا بأخته هو ذلك المحتل الذي أخذ الأرض غصبًا ولم يبال بأي فرد من أفراد الشعب الفلسطيني المسلوبة إرادته مثله في ذلك مثل مريم، واسم مريم يشير إلى الطهر والعفاف، ولكن هذا المغتصب قد دنس كل ما هو طاهر عفيف إنه الوطن الذي احتلوه واغتصبوه. فالمجتمع بأثره أصبح مدنسًا من تلك الفعلة التي يهتز لها كل شيء، وأصبحت معالجة ذلك الفعل على غير ما يجوب بداخل حامد، فحاول أن يزوجها له ورأسه مطأطأة.

---

[37] ما تبقى لكم ص 15.

يزداد الألم حين ترك الديار يقول الكاتب حين وصل الحدود ليهرب من الجحيم بعد أن اضطروه إلى ذلك: "وقد اقتادونا جميعًا إلى هناك، وفيما كنا نتزاحم على الممر الضيق المؤدي إلى ذلك البناء المهدم كانوا يزجروننا تارة بالعبرية المكسرة وتارة بالعربية، ثم أوقفونا صفًا واحدًا وانصرفوا يدرسوننا بإمعان، واضعين فوهات رشاشاتهم تحت آباطهم "[38]. جعل غسان كنفاني الزمن بطلاً في هذا العمل ضمن أبطاله الخمسة، وهم حامد ومريم وزكريا والصحراء والساعة الضخمة التي كانت تلازمه في كل مكان، وكأن الزمن الذي يحمله على كتفيه يلاحقه يقول له لقد أُغتصبت أرضك أو بالأحرى أختك، فكيف تعيد الكرامة كيف ترد على من اغتصب حقك. ظل الزمن يلاحقه في كل مكان في الصحراء التي كانت هي الأخرى بطلاً من أبطال العمل وهو قرع ودق له مرارته. يقول الكاتب: " وها هي تدق عشر دقات. تدق تدق. كان العكاز ينتزع نفسه بائسًا وهو يدق خطوته الأبدية المفردة في نعش صغير مغلق بإحكام، أربع ساعات يسيرها دون لحظة توقف، وأنت تتركني معه أتعقب خطواته على الجدار ملقى إلى جانب، تتنفس نومك، ترى كم بقي له، هل تستطيع أن تعرف زكريا.. زكريا"[39]. الزمن ظل يلاحقه كما قلت في وسط ازدحامات عقلية تطوف به وظل ذلك العقرب الذي يدور وكأنه يخرم رأسه في كل لفة من لفات الساعة، يخشى على

---

[38] ما تبقى لكم ص 25.

[39] ما تبقى لكم ص 31.

نفسه طول المدة المتبقية من ذلك الاغتصاب، اغتصاب الأرض والعرض "استطلعت ذلك العقرب الأسود وهو يزحف فوق ميناء الساعة الأبيض وفكرت: أي جهد يبذله طوال يومه من أجل لقاء عابر، ولا وقوف فيه مع ذلك الرمح القصير الآخر الذي ينتظره ببرود معلقًا كالوتد على رأسه؟ ورغم ذلك لو أنهما التقيا وتعانقا وتوقفا هناك لماتا فورًا، مثل كل الرغبات التي يفسدها ويصغرها أن تتحقق"[40]. إسقاطات معبرة عن الواقع المعيش وما آلت إليه الأمور من تهجير وإبعاد عن الأرض والأهل وقتل واغتصاب وآلام هنا وهناك. ومن ثم فإنه يبدو من أعمال غسان كنفاني أنها تبرز الألم الذي عاناه الشعب الفلسطيني وتأثر به ذلك المجتمع، وهذا هو دور الأديب الذي يعبر عن قضايا مجتمعه وما يمور بها، وما أقسى على الإنسان أن يعبر عن معاناته ومأساته في ظل ظروف احتلال وقهر وذل، وما اكتنف ذلك من غموض لمصير الكثيرين ممن قتلوا ونكل بهم وشردوا دون معرفة أين هم وإلى أين رحلوا؟!!.

يقول أمل دنقل:

نحن جيل الألم

لم نر القدس إلا تصاوير

لم نتكلم سوى لغة الفاتحين

---

[40] ما تبقى لكم ص 56.

لم نتسلم سوى راية العرب النازحين[41].

وفي رواية "السفينة" للكاتب الفسطيني جبرا إبراهيم جبرا يؤكد على أنواع عديدة من الآلام، منها آلام العشق والحب، وآلام الغربة، وآلام الوطن، ومرارة الاحتلال، الذي جعل الشباب يهجرون بلادهم. هاهم مجموعة من الشباب يلتقون على سفينة دون سابق معرفة، تجمعهم أقدارهم على متن هذه السفينة المتجهة إلى أوروبا. يحاول كل واحد منهم أن يبث شكواه إلى الآخر مما كان يؤلمه من حب أو عشق لم يستطع الوصول إليه لأسباب قد تكون مادية أو من قبل البشر الذين يقفون دائمًا في وجه المحبين، فها هو عصام السلمان يترك محبوبته ويهاجر بعد أن عانى الأمرين في الوصول إليها ليس هو فحسب بل إن جميع الأشخاص الذين تلاقوا على السفينة قد هربوا من مشاكل اجتماعية، كان أصعبها مشكلة وديع عساف أحد الشباب الذين هربوا من أهوال الحرب في فلسطين، حيث أجبره الواقع المرير على الهروب خارج الأرض التي نشأ عليها وهو الأمر الذي يقترب من حكايات غسان كنفاني السابقة، فلم يجد هذا الشاب الأمان في ظل وجود الاحتلال، فهرب منها لعله يجد بلادًا أخرى فيها أمان، وكلما تذكر الوطن والأرض بكى " يحس الربيع، لأن زهورًا كعيون الأطفال قد نبتت بين الحجارة نفسها، حول الجذع العاقر المسن نفسه. ولذا فإن الليالي قد تأتيني بذكريات من القدس فأحزن وأغضب وأبكي. كنت مرة في فندق في الشام عندما فوجئت بمثل هذه الذكريات، فبكيت ورآني رجل أعرفه فجاء يسألني ما الخبر، فقلت أبكي

(41) أمل دنقل، سلسلة الآداب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 3005 ص 207 .

على أبي وأمي، وإخوتي وما عدت أعرف الخجل"[42] . لقد برهنت الرواية على أن الجميع نالت منه الحياة بكل أطيافها ومشاكلها فأصبحت مثل الغصات في الحلق يقول جبرا إبراهيم جبرا: " في الحياة غصات كثيرة. فيها الموت. وفيها المرض. فيها الخيبة بالأبناء. وفيها الخيبة بالآباء. فيها الشمس التي تحرق القفا والبرد الذي يشل الأصابع. فيها الموت والقتل وخيانة الصديق. ولكننا نتحملها. إن شرًا وإن خيرًا نتحملها ما دمنا لا نستطيع الانتحار فلا بد من تحملها، ولا بد من الإدعاء بالجلد والبطولة في تحملها. ولكن الغصة الكبرى هي هذا الذي يعجز عنه التحديد"[43]. لقد عبرت رواية السفينة عن أنواع عديدة من الآلام كما ذكرت، ولكن ما يهمني في تلك الآلام أنها تناولت ألم الأرض المغتصبة ليتفق في ذلك مع غسان كنفاني في معظم أعماله وكذلك ألم الغربة، ولكن هنا عند جبرا أراد أن يجعل الآلام تتجمع في نقطة واحدة وهو مكان بعينه يفرغ فيه الهموم، هذا المكان هو المكان المتحرك أي " السفينة " فحركة المكان والمكان المتحرك يدلان دلالة قاطعة على الفوران والغليان بداخل الكاتب، فما الذي يجعله يعايشنا تلك الآلام في عرض البحر إلا إذا كان هناك هدفٌ من ذلك، وأيضًا هناك تأثير للواقع المعيش على الكاتب نفسه، فجبرا إبراهيم هو كاتب يشعر دائمًا بألم الأرض لأنه وحده من يشعر بذلك، فلا يعرف الشوق إلا من يكابده.

---

[42] جبرا إبراهيم جبرا، السفينة، دار الآداب، الطبعة الخامسة، لبنان 2008ص 18.

[43] جبرا إبراهيم جبرا، السفينة، ص 8.

الخلفية التاريخية

للمشكلة الفلسطينية

د محمدعبدالنبي

رمى الرئيس الأميركى الحالى ؛ دونالد ترامب بحجر فى المياه الراكدة ، ولأن الحجر ثقيل والمياه عطنة حملت الريح رائحتها النتنة التى أهاجت الشعوب العربية المعتادة على السكون .
أما الحكام العرب فلم يحركوا ساكناً . إلا من القليل الذى أعرب عن أن الرائحة نتنة فعلاً ، وأن على ترامب أن يسحب الحجر الذى ألقاه .
ولكى نحلل موقف الحكام العرب الذين يعرفون ما تحوى هذه المياه ، ويعلمون سبب هذا التراكم النتن ، ويدركون أنهم لن يستطيعوا منع ترامب من فعل ذلك مرة أخرى ، توجد خلفية تاريخية يجب أن يدركها الجميع .. والجميع هنا هى الشعوب العربية المغيبة عمداً عن هذه الخلفية .
يبرز فى هذه الخلفية ثلاثة مداخل رئيسية تسير أحداثها فى مسار الصراع الصليبى – الإسلامى . أولها : الحملات الصليبية ، حيث كان انتصار صلاح الدين الأيوبى عليهم فى معركة حطين فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر ، واسترداد بيت المقدس منهم ، يمثل حداً فاصلاً وبداية انتهاء الاحتلال الصليبى لفلسطين ، وثانيها : طرد المسلمين واليهود من إسبانيا المسيحية فى نهايات القرن الخامس عشر ، وثالثها : اقتراب جيوش المسلمين من أبواب فيينا فى منتصف القرن السادس عشر .
ولنلاحظ أن المدخل الأول صراع صليبى – إسلامى بين جيوش القوات الصليبية الأوروبية وجيوش المسلمين ، والتى انتهت بطرد الصليبيين المعتدين من فلسطين .
قامت القوات الصليبية فى بدايته بقتل حوالى ستة آلاف يهودى فى فرنسا – رفضوا اعتناق المسيحية – عند خروجها من أوروبا إلى الشرق ، وفى فلسطين قاموا بذبح حوالى مائة ألف مسلم وحرق غالبية اليهود أحياء وهو مجتمعون داخل المعبد للصلاة .
وأن المدخل الثانى صراع صليبى [كاثوليكى – (إسلامى / يهودى)] ، انتهى بطرد المسلمين واليهود معاً من إسبانيا وتثبيت المسيحية فيها .
والمدخل الثالث صراع إسلامى – صليبى ، كرد فعل لما حدث فى

الأندلس ، بظهور الدولة العثمانية وتوغلها فى أوروبا لتأسيس حدود استراتيجية إسلامية خارج نطاق البلاد التى ثبت فيها الدين الإسلامى ، أصبحت فاصلاً بين " دارالإسلام " و " دار الحرب " .
فى المداخل الثلاثة السابقة لم يكن لليهود دور سياسى ، ولكن كان لهم نصيب من الإبادة فى المدخل الأول ، واشتراكهم فى الطرد مع المسلمين ؛ وانتقال جزء منهم إلى أوروبا ؛ والجزء الآخر إلى العالم الإسلامى فى المدخل الثانى .
وشكلت آثار هذا الانتقال – وخاصة إلى أوروبا – وما نتج عنه من تغيير فى الموقف المسيحى تجاه اليهود ، أساس الاهتمام الأوروبى باليهود والعهد القديم ، الذى نتج عنه ابتداع اليهود لمذهب مسيحى جديد هو المذهب الإصلاحى البروتستانتى .
فقد أدى هذا المذهب الجديد إلى انقسام المشاعر المسيحية ناحية اليهود فى اتجاهين ، الأول : اتجاه أصيل وأساسى وهو البغض لليهود لأسباب دينية ، والثانى : اتجاه متعاطف مع اليهود لأسباب دينية أيضاً .
الاتجاه الأول يمثله المذهب الكاثوليكى ويسعى إلى طرد اليهود خارج أوروبا ، والاتجاه الثانى يمثله المذهب البروتستانتى ويسعى إلى تمكين اليهود من أرض الميعاد ؛ أرض شعب الله المختار ؛ من أجل تنفيذ مخطط استعمارى .
وأدى ذلك إلى أن أصبح العهد القديم هو المرجع وليس العهد الجديد ، كما أصبحت فلسطين هى أرض شعب الله المختار وليست مسقط رأس المسيح ، ونشطت عمليات إعادة تفسير الكتاب المقدس المستقاة من التوراه ؛ وإعادة إحياء اللغات الشرقية القديمة من مصرية وآشورية وعبرية ... إلخ .
ارتكز المخطط على دعامتين هادمتين ، الأولى هى : الاستشراق والتبشير ، والثانية هى : زرع عنصر غير مسيحى وغير إسلامى فى وسط العالم الإسلامى يكون بمثابة شوكة أو خازوق ، وطابور خامس عميل للصليبية .

ومصر خاصة كانت هدفاً رئيسياً للغزو الصليبى منذ الحملات الصليبية ، سواء فكرى أو عسكرى ، فالغرب يعتبر العالم الإسلامى أفعى ؛ ورأس الأفعى هى مصر ، ومن أجل القضاء على الأفعى يجب أولاً قطع رأسها ، وأن من يريد أن يسترد القدس فعليه أولاً أن يمتلك مصر .
وظل هذا المفهوم مبدأ أساسياً فى الفكر الدينى / السياسى للغرب تجاه مصر . فمثلاً عندما شعر (ليبنتز) Leibinz (1646 – 1716) وهو فيلسوف وعالم ألمانى ، كان سفيراً لألمانيا فى باريس ، بالخطر على ألمانيا من احتمال هجوم جيش لويس الرابع عشر ، أراد أن يصرف نظره إلى وجهة أخرى تلقى اهتمامه .

فكتب له مذكرة فى 1672 ليحول تفكيره عن القارة الأوروبية كلها ، يقترح عليه فيها إرسال جيش لغزو بلاد الفراعنة لأن مصر تعتبر أفضل موقع للسيطرة على الدنيا بأسرها ، وأكد له أنها خاليه من أى دفاع ولا تنتظر سوى " جيش تحرير " لكى تنهض .
وأكد خسارة المسيحيين بعدم سيطرتهم على هذه الأرض المقدسة التى تربط آسيا بأفريقيا وتتوسط كحاجز بين البحرين الأحمر والمتوسط .
وأكد له أيضاً أن احتلال مصر سيؤمن امتلاك الهند ، وتجارة آسيا ، والسيطرة على الكون وحثه قائلاً :
" أنك تنال أجراً كبيراً عند الله وعند الناس ، إذ تخلص هذه البقعة المباركة من أيدى المسلمين ، الذين لا يليق بالأمم المسيحية أن تسكت على بقائها فى أيديهم " .
ولكن الملك لويس لم يأبه بهذه المذكرة ، لإدراكه مدى صعوبة الأمر ولحسابات أخرى له فى القارة الأوروبية .
أما الدعامة الثانية للمخطط الغربى ، وهى زرع عنصر عميل لا يكون مسيحياً ولا مسلماً . فلم يكن هناك من هم أكثر ملائمة من اليهود .
فأوضاعهم الاجتماعية فى أوروبا من حيث تشتتهم أولاً ، ثم بُغض الكاثوليك والأورثوذوكس لهم ثانياً جعلت الجهود تتضافر من أجل

إخراجهم من أوروبا كلها .
هذا من ناحية أما من ناحية أخرى فالذى حفز الصليبيين على اختيار اليهود خاصة فهو الحقد اليهودى العتيق للإسلام ومحاولاتهم لهدمه أو إفساده منذ بعث الرسول الكريم محمد عليه الصلاة والسلام ، فأصبحت توجد مادة خام قابلة للتطويع للغرب الصليبى لهدم الدين الإسلامى ، ولكن كانت المشكلة بالنسبة لليهود هى المكان .
وقد حلت فلسطين هذه المشكلة من حيث موقعها الجغرافى ومن حيث ارتباط اليهود الدينى بها ، فهى من ناحية الموقع الجغرافى فى وسط العالم أولاً ، ثم فى وسط الطريق التجارى الدولى ثانياً ، ثم فى وسط العالم الإسلامى ثالثاً ، ثم انها مرتبطة بمصر رابعاً .
وارتباط فلسطين بمصر هو الذى دفع الغرب إلى الاهتمام بمصر ، وقد أدى هذا إلى استقرار مبدأ سياسى مؤداه أنه من يريد أن يسيطر على فلسطين عليه أولاً ان يسيطر على مصر . وهذه هى مشكلة مصر مع الصليبية الغربية ومع اليهود .
وهكذا فإن البروتستانت هم الذين عملوا على زرع اليهود فى المنطقة ، وابتدعوا الفكر الصهيونى ، كبديل للحركة الصليبية ، وساندوه حتى أصبح واقعاً ملموساً ، ولذلك بدأت مسألة العودة اليهودية إلى فلسطين تحتل مكاناً فى الاتفاقيات السياسية الدولية ، لا من تأثير الضغط اليهودى ، ولكن لرغبة الغرب فى ذلك .

ومن أجل زراعة العنصر العميل فى فلسطين ، الذى تم بالتعاون مع اليهود ، تم وضع مخطط لإزالة الامبراطورية العثمانية (الانتهاء من رجل أوروبا المريض) لأنها العقبة الرئيسية أمام ذلك الهدف ؛ وحتى يتم القضاء على الخلافة الإسلامية لأنها هى المسئولة ، حتى تلك الفترة ، عن فلسطين . وبالقضاء عليها تصبح فلسطين متاحة لمن يسيطر عليها .
فما يبدو فى الإعلام الغربى على أنه ابتزاز من اليهود لبعض دول أوروبا ، فهو ليس ابتزازاً على الإطلاق ولكنه حصص هذه الدول فى

الميزانية التى تدفعها الصليبية الدولية لحماية الكيان الصهيونى فى فلسطين (إسرائيل) وضمان استمرارها كخازوق وطابور خامس لهم .
ولذا فإن ما يبدو من دعم لإسرائيل هو ناتج عن اقتناع دينى بروتستانتى على المستوى الشعبى يستغله الساسة ، بأن اليهود على حق وأن العرب المسلمين هم مغتصبو الأرض ، وهذا الاقتناع هو الذى يساند هذه الصورة ؛ وليس نفوذ اليهود المزعوم ، لأن لا تعدادهم على مستوى العالم ؛ ولا طبيعتهم تمكنهم من ذلك .
كذلك تركيزهم على اعتبار أن هيكل سليمان قد بنى فى فلسطين ، مع أن التوراه تذكر أن هيكل سليمان تم بناؤه فى أورشليم ، وأورشليم موقع فى وادى ابن هنوم ، وتوجد باليمن منطقة تحمل هذا الاسم فى محافظة عمران .
([8]وَصَعِدَ التُّخُمُ فِي وَادِي ابْنِ هِنُّومَ إِلَى جَانِبِ الْيَبُوسِيِّ مِنَ الْجَنُوبِ، هِيَ أُورُشَلِيمُ. وَصَعِدَ التُّخُمُ إِلَى رَأْسِ الْجَبَلِ الَّذِي قُبَالَةَ وَادِي هِنُّومَ غَرْبًا، الَّذِي هُوَ فِي طَرَفِ وَادِي الرَّفَائِيِّينَ شِمَالاً. [i])
.
أيضاً توجد أدلة فى التوراه تتشابه مع آيات القرآن الكريم فيما يخص الجنات الأرضية فى عدن ، التى كانت مزدهرة ثم انقلبت قفراً ، وكتب عليهم التشتت ، بسبب عبادة أهلها لإله غير الله وسموه " بعل " .
فهل يعنى هذا أن هيكل سليمان قد بُنِىَ فى اليمن وليس فى فلسطين ، فهذا – إن كان صحيحاً – من أكبر عمليات تزييف اليهود للتاريخ ، خاصة وأن هناك اليمن الشمالى واليمن الجنوبى الذى يتطابق مع دولتى إسرائيل ويهوذا فى الشمال والجنوب ، بالإضافة إلى أن التوراه تؤكد أن الله قد أمر بفناء وادى ابن هنوم وتغيير اسمه .
[31]وَبَنَوْا مُرْتَفَعَاتِ تُوفَةَ الَّتِي فِي وَادِي ابْنِ هِنُّومَ لِيُحْرِقُوا بَنِيهِمْ وَبَنَاتِهِمْ بِالنَّارِ، الَّذِي لَمْ آمُرْ بِهِ وَلاَ صَعِدَ عَلَى قَلْبِي. [32]«لِذلِكَ هَا أَيَّامٌ تَأْتِي، يَقُولُ الرَّبُّ، وَلاَ يُسَمَّى بَعْدُ تُوفَةُ وَلاَ وَادِي ابْنِ هِنُّومَ، بَلْ وَادِي الْقَتْلِ. وَيَدْفِنُونَ فِي تُوفَةَ حَتَّى لاَ يَكُونَ مَوْضِعٌ. [33]وَتَصِيرُ جُثَثُ هذَا الشَّعْبِ أَكْلاً لِطُيُورِ

السَّمَاءِ وَلِوُحُوشِ الأَرْضِ، وَلاَ مُزْعِجَ. 34وَأُبَطِّلُ مِنْ مُدُنِ يَهُوذَا وَمِنْ شَوَارِعِ أُورُشَلِيمَ صَوْتَ الطَّرَبِ وَصَوْتَ الْفَرَحِ، صَوْتَ الْعَرِيسِ وَصَوْتَ الْعَرُوسِ، لأَنَّ الأَرْضَ تَصِيرُ خَرَابًا. (ii) 0

مثلما حدث مع يعقوب عليه السلام عندما أمره الله بتغيير اسمه من يعقوب إلى إسرائيل ، فتلاشى اسم يعقوب وبقى اسم إسرائيل ، وممكن أيضا أن يكون اسم ابن هنوم تلاشى وبقى اسم أورشليم ، ولكن بقى اسم ابن هنوم اسم منطقة فى محافظة عمران فى اليمن ، وبالتأكيد لم يأت هذا الاسم من فراغ ، خاصة وأن التوراه ، فى سفر التكوين ، تذكر أن جنة عدن توجد على أرض اليمن ، وأن هذه الجنة ينزل إليها الله
8وَغَرَسَ الرَّبُّ الإِلهُ جَنَّةً فِي عَدْنٍ شَرْقًا، وَوَضَعَ هُنَاكَ آدَمَ الَّذِي جَبَلَهُ. 9وَأَنْبَتَ الرَّبُّ الإِلهُ مِنَ الأَرْضِ كُلَّ شَجَرَةٍ شَهِيَّةٍ لِلنَّظَرِ وَجَيِّدَةٍ لِلأَكْلِ، وَشَجَرَةَ الْحَيَاةِ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ، وَشَجَرَةَ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ. 10وَكَانَ نَهْرٌ يَخْرُجُ مِنْ عَدْنٍ لِيَسْقِيَ الْجَنَّةَ، وَمِنْ هُنَاكَ يَنْقَسِمُ فَيَصِيرُ أَرْبَعَةَ رُؤُوسٍ: 11اِسْمُ الْوَاحِدِ فِيشُونُ، وَهُوَ الْمُحِيطُ بِجَمِيعِ أَرْضِ الْحَوِيلَةِ حَيْثُ الذَّهَبُ. 12وَذَهَبُ تِلْكَ الأَرْضِ جَيِّدٌ. هُنَاكَ الْمُقْلُ وَحَجَرُ الْجَزْعِ. 13وَاسْمُ النَّهْرِ الثَّانِي جِيحُونُ، وَهُوَ الْمُحِيطُ بِجَمِيعِ أَرْضِ كُوشٍ. 14وَاسْمُ النَّهْرِ الثَّالِثِ حِدَّاقِلُ، وَهُوَ الْجَارِي شَرْقِيَّ أَشُّورَ. وَالنَّهْرُ الرَّابِعُ الْفُرَاتُ. 15وَأَخَذَ الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ وَوَضَعَهُ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَعْمَلَهَا وَيَحْفَظَهَا. (iii) .

فلماذا اليمن ؟ .

وأُقدّم هنا تصور أعتقد أنه أقرب إلى الحقيقة الغائبة ، يعتمد على أن اليهود بعدما مكثوا فى سيناء أربعين عاماً ، وجعلوا من هارون النبى شقيق موسى هو صانع العجل الوثن
3فَنَزَعَ كُلُّ الشَّعْبِ أَقْرَاطَ الذَّهَبِ الَّتِي فِي آذَانِهِمْ وَأَتَوْا بِهَا إِلَى هَارُونَ. 4فَأَخَذَ ذلِكَ مِنْ أَيْدِيهِمْ وَصَوَّرَهُ بِالإِزْمِيلِ، وَصَنَعَهُ عِجْلاً مَسْبُوكًا. فَقَالُوا: «هذِهِ آلِهَتُكَ يَا إِسْرَائِيلُ الَّتِي أَصْعَدَتْكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ». 5فَلَمَّا نَظَرَ هَارُونُ بَنَى مَذْبَحًا أَمَامَهُ، وَنَادَى هَارُونُ وَقَالَ: «غَدًا عِيدٌ لِلرَّبِّ». (iv) ..

ورحلوا عنها ، لم يتمكنوا من دخول فلسطين ، لأن التوراه تذكر أن الله أكد لموسى أنه سيدخله فلسطين وأنه سيرسل أمامه ملاك لهذا الهدف ، ثم مات موسى ولم يدخل فلسطين هو أو اليهود .
كذلك يؤكد القرآن الكريم أن موسى قد مات فى سيناء ولم يدخل هو أو اليهود ، فكيف يؤكد الله لموسى أنه سيدخله فلسطين ثم يتوفاه ؟ هل الله مخادع أم كاذب ؟ حاشى لله سبحانه وتعالى ، إلا إذا كان هذا الإله هو إله اليهود فقط العنيف الشرس ، فلن يزداد الأمر سوأً إن كان كاذباً ! .
وبالتالى – نفس التصور – بعد رحيلهم عن سيناء اتجهوا ناحية الأردن ثم جنوباً فى اتجاه اليمن واستقروا هناك لفترة طويلة ، ثم اضطرتهم الظروف بعد غضب الله عليهم وتحولت جنة عدن إلى قفر ، رحلوا مرة أخرى إلى فلسطين ولكن بعد بضع آلاف من السنين
ولا يجب أن نتعجب لذلك لأن اليهود قد خرجوا من مصر منذ قبل عصر مينا بحوالى 560 سنة ، وأن التواريخ التى يذكرها المؤرخون هى تواريخ مزيفة ومزورة .
والدليل على ذلك أن التقويم العبرى لعام 2017 هو 5777 ، وهم يؤرخون لخروجهم من مصر – أى هجرتهم – وهذا يعنى أنهم خرجوا – أو هاجروا – من مصر منذ حوالى 5777 سنة ، فإذا ما طرحنا من هذا الرقم 2017 عدد السنين الميلادية ، و 3200 الفترة منذ بداية عصر التأسيس ، يتبقى 560 عام ، كما توجد دلائل أخرى كثيرة ليس مجالها هذا الموضع .
فماذا إذن يمنع أن يكونوا قد خرجوا من سيناء بعد أن ظلوا لمدة أربعين سنة ثم استقروا فى اليمن لأكثر من ثلاثة آلاف سنة ، ثم اضطروا لتركها والاتجاه شمالاً مرة أخرى ، وأثناء سيرهم استقر البعض فى شبه الجزيرة العربية ، والبعض الآخر فى فلسطين ؟ ، وماذا يمنع أيضاً أن يكونوا بعد أن استقروا فى فلسطين لمئات السنين وعرفوا معالمها ، ثم تم أسرهم وسبيهم ، فقام بعض حاخاماتهم بكتابة التوراه فى الأسر ، بعد وفاة موسى بآلاف السنين ؟ .

وهناك أدلة على أن التوراه التى كتبت فى الأسر ليست هى التوراه التى أنزلها الله على موسى ، وذلك هو السبب فى التحريفات والتداخلات التى حدثت فى التوراه [v] . وسجل الكهنة الأحداث التى حدثت فى اليمن على أنها حدثت فى فلسطين ، وقد حدث خلط للأمور عند كتابة التوراه فخلطوا أحداث ومواضع اليمن بأحداث ومواضع العراق وسجلوها على أنها حدثت فى فلسطين ، وتجاهلوا وجود العرب والفلسطينيين قبل دخول اليهود إلى فلسطين .

خاصة وأن هناك بعض العلماء المصريين الذين يروا أن اليهود تعمدوا التضليل فى الأماكن المذكورة فى التوراه [vi] ، وأن هناك فارق تاريخى يسبق التاريخ المتعارف عليه بألف سنة [vii] . ولذلك نطرح هذه التساؤلات للمناقشة والبحث من المتخصصين .

فاليهود الذين سهل عليهم أن يكذبوا على الله ، من الأسهل عليهم أن يكذبوا على البشر

8كَيْفَ تَقُولُونَ: نَحْنُ حُكَمَاءُ وَشَرِيعَةُ الرَّبِّ مَعَنَا؟ حَقًّا إِنَّهُ إِلَى الْكَذِبِ حَوَّلَهَا قَلَمُ الْكَتَبَةِ الْكَاذِبُ. 9خَزِيَ الْحُكَمَاءُ. ارْتَاعُوا وَأُخِذُوا. هَا قَدْ رَفَضُوا كَلِمَةَ الرَّبِّ، فَأَيَّةُ حِكْمَةٍ لَهُمْ؟ 10لِذلِكَ أُعْطِي نِسَاءَهُمْ لآخَرِينَ، وَحُقُولَهُمْ لِمَالِكِينَ، لأَنَّهُمْ مِنَ الصَّغِيرِ إِلَى الْكَبِيرِ، كُلُّ وَاحِدٍ مُولَعٌ بِالرِّبْحِ. مِنَ النَّبِيِّ إِلَى الْكَاهِنِ، كُلُّ وَاحِدٍ يَعْمَلُ بِالْكَذِبِ. [viii] .

وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١) وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢) [ix] .

مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا(٤٦) [x]

فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ۙ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣) [xi] .

ويكشف القرآن الكريم كذب وافتراءات اليهود على الله وعلى الناس وتحريفهم لكلام الله ، ففى القرآن آيات كثيرة تؤيد عدم دخول اليهود فلسطين .

وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩) [xii] .

يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٣) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا ۖ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ۖ فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ۗ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٦) [xiii] .

وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا (١٥٤) فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَل طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥٥) [xiv]

ولكن نود أن نؤكد أولاً أن القرآن لم يذكر فلسطين بالاسم ، ولكن ذكر الله الأرض المباركة ، والأرض التى باركها الله فى مواضع كثيرة مختلفة ، منها فى فلسطين ، ومنها فى اليمن ، كما يربط القرآن الكريم فى سورة "

سبأ " بين داود وسليمان وسبأ والأرض المباركة

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ۖ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١) وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ۖ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ۚ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (١٣) فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (١٤) لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (١٧) وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ۖ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (١٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩) [xv] .

وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١) [xvi] .

وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (٨١) [xvii] .

واضح فى الآيات السابقة أن الله سبحانه وتعالى قد وضع شروطاً لليهود وميثاق حتى يتمكنوا من دخول الأرض المباركة ، إن استجابوا لهذه الشروط ونفذوها يُمكِّن لهم من الدخول ، وإن لم يفعلوا لا يُمكِّن لهم الدخول ، كأن يقولوا حطة ويدخلوا الباب ساجدين ... إلخ ، ولكنهم لم يرفضوا فقط بل بدلوا أوامر التمكين هذه بكلمات أخرى ، ولذلك لم يدخلوا

الأرض المباركة .
وعند اليهود ؛ عيد أول الحصيد ؛ وحصيد تعنى جمع المحصول المزروع ، والزراعة تكون فى السهول ، بينما القدس موقع جبلى (اللاويين : 23 : / 1 : 18) .
وواضح أيضاً فى الآيات السابقة أن هناك أرض مباركة ، وقرى مباركة ، فإذا كانت الأرض المباركة فى فلسطين فإن القرى المباركة فى أماكن أخرى غير فلسطين ، وإذا كان إبراهيم ولوط عليهما السلام قد ذهبا إلى فلسطين ، فواضح تمام الوضوح فى الآية الأخيرة أن هناك مسافة كبيرة بين موضع سليمان وبين الأرض المباركة تقطعها الريح العاصف ، أى أن سليمان عليه السلام كان فى القرى المباركة ويرسل الريح إلى الأرض المباركة أى أنه لم يكن فى فلسطين .
كما تبين الآيات أن هناك ارتباط ما بين داود وسليمان وسبأ والجنة والقرى المباركة ، التى تبدل الحال فيها بسبب كفر سكانها .
وفى العصر الحديث نجد أن الشيخ حسن العطار ، وهو عالم أزهرى له مكانته العلمية والأدبية ، قال بيتاً من الشعر ، أورده الجبرتى يتنبأ بذهاب نابليون إلى فلسطين ؛ بعد مجيئه إلى مصر ، ويتنبأ ايضاً بهلاك الجيش الفرنسى هناك ، مما يوحى بأن فكرة أن الحملة الفرنسية كانت تسعى لعودة اليهود إلى فلسطين كانت مطروحة بشكل ما فى مصر .

إن الفرنسيين قد ضاعت دراهمهم	فى مصرنا بين حمَّار وخمَّار
وعن قريب لهم فى الشام مهلكة	يضيع لهم فيها آجال وأعمار [xviii]

ففى فبراير 1799 انتقل نابليون بجزء كبير من جيشه إلى فلسطين ، كما هو مخطط حسب قرار حكومة الإدارة فى فرنسا

وكانت وجهة نظر الحكومة ونابليون ، أن منطقة الشام ومصر تمثل قلب

المنطقة الاستراتيجية للعالم الإسلامى العربى ، وبالتالى إذا تم زرع عنصراً معادياً للإسلام ، واستقر فى قلب هذه المنطقة لأمكن السيطرة على مقدرات الأمور فى العالم الإسلامى كله ، لأن مصر تمتلك التأثير فى شمال أفريقيا كلها وشرق أفريقيا ، وسوريا تمتلك التأثير فى العالم الإسلامى فى آسيا .
طبقاً لهذه الرؤية أصبحت فلسطين هى عجلة القيادة بالنسبة للمنطقة ، ولابد أن تكون فى يد عنصر غير مسلم .
كان نابليون ملماً بالاتصالات الجارية بين الحكومة الفرنسية والمجلس اليهودى ؛ وكان على اتفاق معهم ، ولذا فإنه فور وصوله إلى عكا وزع منشوراً فى فلسطين ؛ وتم توزيع نفس المنشور فى فرنسا ، وفى ايطاليا ، والمقاطعات الألمانية ، واسبانيا ، فى نفس التوقيت . وجاء كالآتى :
" من نابليون بونابرت القائد الأعلى للقوات المسلحة للجمهورية الفرنسية فى أفريقيا وآسيا إلى ورثة فلسطين الشرعيين .
أيها الإسرائيليون ، أيها الشعب الفريد ، الذين لم تستطع قوى الفتح والطغيان أن تسلبه نسبه ووجوده القومى ، وإن كانت قد سلبته أرض الأجداد فقط .
إن مراقبى مصائر الشعوب الواعين المحايدين – وإن لم تكن لهم مقدرة الأنبياء مثل إشعيا ويوئيل – قد أدركوا ما تنبأ به هؤلاء بإيمانهم الرفيع أن عبيد الله سيعودون إلى صهيون وهم ينشدون ، وسوف تعمهم السعادة حين يستعيدون مملكتهم دون خوف .

انهضوا بقوة أيها المشردون فى التيه . إن أمامكم حرباً مهولة يخوضها شعبكم بعد أن اعتبر أعداؤه أن أرضه التى ورثها عن الأجداد غنيمة تقسم بينهم حسب أهوائهم . ... لابد من نسيان ذلك العار الذى أوقعكم تحت نير العبودية ، وذلك الخزى الذى شل إرادتكم لألفى سنة . إن الظروف لم تكن تسمح بإعلان مطالبكم أو التعبير عنها ، بل إن هذه الظروف أرغمتكم بالقسر على التخلى عن حقكم ، ولهذا فإن فرنسا تقدم لكم يدها

حاملة إرث إسرائيل ، وهى تفعل ذلك فى هذا الوقت بالذات ، وبالرغم من شواهد اليأس والعجز .

إن الجيش الذى أرسلتنى العناية الإلهية به ، ويمشى بالنصر أمامه وبالعدل وراءه ، قد اختار القدس مقراً لقيادته ، وخلال بضعة أيام سينتقل إلى دمشق المجاورة التى استهانت طويلاً بمدينة داود وأذلتها .
يا ورثة فلسطين الشرعيين إن الأمة الفرنسية التى لا تتاجر بالرجال والأوطان كما فعل غيرها ، تدعوكم إلى إرثكم بضمانها وتأييدها ضد كل الدخلاء .
انهضوا واظهروا أن قوة الطغاة القاهرة لن تخمد شجاعة أحفاد هؤلاء الأبطال الذين كان تحالفهم الأخوى شرفاً لإسبرطة وروما ، إن معاملة العبودية التى طالت ألفى سنة لم تفلح فى قتل هذه الشجاعة .
سارعوا ! إن هذه هى اللحظة المناسبة – التى قد لا تتكرر لآلاف السنين – للمطالبة باستعادة حقوقكم ومكانتكم بين شعوب العالم ، تلك الحقوق التى سلبت منكم لآلاف السنين وهى وجودكم السياسى كأمة بين الأمم ، وحقكم الطبيعى المطلق فى عبادة إلهكم يهوه ، طبقاً لعقيدتكم ، وافعلوا ذلك فى العلن وافعلوه إلى الأبد

بونابرت " [xix] .

واضح مما سبق ومن توزيع المنشور فى توقيت واحد فى أوروبا أن الأمر مخطط له من القوى الأوروبية المسيحية ، لأن اليهود انفسهم فى البلاد العربية أو آسيا أو أفريقيا ، أو حتى من أوروبا ، لم يستجيبوا لنداء نابليون .

ومن جانب آخر لم يكن نابليون محباً لليهود ، ولا البابوية فى روما ، كما سبق الذكر ، بل كان معادياً لكل الأديان وعلمانياً ، ولكنه استغل الرغبة الدينية عند اليهود فى تحقيق فكرة زرع عميل من العنصر اليهودى فى وسط العالم الإسلامى ، وبالتالى منتظر أن يساعده اليهود بعد إقرارهم فى فلسطين فى إيقاع وتأليب العرب ، واليونان ، والأرمن على الحكم

العثمانى ، والاستفادة عن طريقهم من الوصول إلى العاصمة العثمانية ، وإنهاء الحكم الإسلامى نهائياً .
وبعد فشله أمام الجزار فى عكا ، وبعد قتله لحوالى 2500 مسلم هناك ، وأمام أسوار عكا الحصينة ، وعناد سيدنى سميث Sedny Smith قائد الأسطول البريطانى فى البحر الأبيض ، وتفشى الطاعون فى جنوده ، وفقده للبعض من كبار قواده ؛ ولمترجمه اليهودى ، وبعد أن ترك الذين يعاونوه يشنقون ، عاد مرة أخرى فى مايو من نفس العام إلى مصر حاملاً مع بقايا جيشه جرحاه ، ومرضاه ، متخلياً عن أحلامه الكبيرة فى تكوين امبراطورية نابليونية فى الشرق ، مثل امبراطورية الإسكندر الإكبر

بعد انتهاء عصر نابليون ؛ ومنذ بداية ثلاثينيات القرن التاسع عشر ، أى فى 1830 تأسست جمعية Plymouth Brotheren فى انجلترا ، وهى جمعية بروتستانتية تدعو إلى أن المسيح سوف ينزل إلى الأرض بعد أن يعود اليهود إلى فلسطين ، وساد تيار جارف فى أوروبا يحرض السلطات على تخليص الرعايا المسيحيين فى الامبراطورية العثمانية من حكم المسلمين .
وبعد عامين تأسست الجمعية الجغرافية الملكية The Royal Geograpgical Society (RGS) مهمتها الأبحاث والاستكشافات الجغرافية التى تخدم الأهداف الاستعمارية البريطانية ، ولم تكن أعمال هذه الجمعية لأهداف علمية خالصة

" ... الاستخدام الفيكتورى لكلمة (عِلم) مختلف بالتأكيد ... بوضوح يعتمد على تفسيرات استعمارية ... تطبق الجغرافيا التوراتية والعمارة التوراتية . وخاصة الأرض المقدسة " [xx] .

مما يؤكد أن هذه الجمعية قد تأسست خصيصاً لاستكشاف طبيعة الأرض الفلسطينية ومدى ملائمتها لسكن اليهود ، قبل المضى فى الخطوات السياسية الفعلية .

وفى العام التالى كتب بنيامين ديزرائيلى Benjamin Disraeli (1804 – 1881) ، أحد كبار الصفوة فى انجلترا وهو من أصل يهودى ، ويقول عنه فيشر : " ذلك اليهودى النافذ البصيرة " ، رواية " داود الرائى " Alroy ، وهى رواية تروج لفكرة عودة المسيح الدجال ، وتدور حول مساعى بطلها لإعادة القدس إلى اليهود .
كان ديزرائيلى يروج لهذه الفكرة بقوله :
" إن فلسطين لها مقومات طبيعية كبرى : كل المطلوب هو العمال ، وحماية لهم ، والمِلكية تأتى من تركيا ، تُشترى من تركيا : المال لابد أن يأتى سريعاً ويجب أن تساعد عائلة روتشيلد وأصحاب رؤوس الأموال اليهود فى ذلك : الامبراطورية التركية على وشك السقوط والإفلاس : والحكومة التركية ستفعل أى شىء من أجل المال : كل المطلوب هو بناء المستعمرات ... "

وأرسل هنرى اينس Henry Innes سكرتير البحرية البريطانية ، فى يناير 1839 مذكرة إلى بالمرستون Henry John Temple Palmerstone (1784 – 1865) ، وموجهة أيضاً إلى حكام دول اوروبا الغربية وأميركا ، تطالبهم بتحرير " إسرائيل " (فلسطين) وأن يقتدوا بقورش وينفذوا إرادة الله .
فقام بالمرستون برفع المذكرة إلى الملكة فيكتوريا ، المعروفة بتقواها وورعها كبروتستانتية ، وقد أحاطت هذه المذكرة هالة إعلامية ضخمة ، وتغطية كبرى من الصحافة البروتستانتية .
وفى نفس العام قام يهودا القلعى بزيارة إلى بعض دول أوروبا الغربية ، وقابل كبار المسئولين فيها وكثيراً من الرأسماليين اليهود ، ثم أعلن بعد ذلك أنه توصل عن طريق حسابات كهنوتية صوفية إلى أن عام 1840 سيكون عام الخلاص اليهودى والعودة إلى فلسطين .
بالتأكيد كان لإعلانه هذا صلة بالصراع المصرى – التركى فى تلك الفترة ، ومر عام 1840 دون حدوث الخلاص اليهودى الذى ادعاه .

فابتدع مخططاً آخر يتلخص فى العودة الهادئة التدريجية لليهود فى فلسطين ، على أن يهاجر إليها فقراء اليهود ، بتمويل من أغنيائهم ، وبناء المنازل لهم وإنشاء المشاريع هناك .
ولم يطلب من الأثرياء الهجرة ، لأن وجودهم فى أوروبا ونفوذهم فيها من الأهمية بمكان لضمان التأثير على القرار السياسى لصالح اليهود . ولأن وجودهم فى أماكنهم فى أوروبا مرغوب فيه اقتصادياً من الساسة الأوروبيين .
كان هناك تفاهم بين بالمرستون ويهودا القلعى على أن يقوم بالمرستون بالدور السياسى الداعى لنقل اليهود إلى فلسطين ، وأن يتولى القلعى الجانب الدعائى .
فاللورد بالمرستون ، أكبر مؤيد لسياسة شافتسبرى Shaftesbury الداعية إلى عودة اليهود إلى فلسطين ، وعلى صلة قوية بموسى مونتفيورى .
استغل بالمرستون الفكر الدينى البروتستانتى فى تنفيذ سياسته تجاه الامبراطورية العثمانية . فمنذ أن تولى وزارة الخارجية لأول مرة فى 1830 ، كان شافتسبرى يلح عليه بأن ينشىء قنصلية بريطانية فى القدس وتعيين نائب للقنصل فيها ، وفى 1838 ونتيجة لإصرار شافتسبرى تم فتح القنصلية البريطانية فى القدس يديرها نائب القنصل البريطانى فى مصر .
وفى خلال عشر سنوات تم افتتاح قنصليات لبروسيا ، وفرنسا ، والنمسا ، وإسبانيا ، والولايات المتحدة الأميركية " من أجل تقديم الحماية لليهود بشكل عام " [xxi] .
دائماً ما كان يؤكد بالمرستون أن عودة اليهود إلى فلسطين ستعطى القوة للسياسة البريطانية ، وفى 1839 أصدر تعليمات إلى ويليام يونج William Young القنصل البريطانى فى القدس بمنح اليهود فى فلسطين الحماية البريطانية .
كما كان وراء حملة إعلامية فى عامى 1839 ، 1840 تزعمتها

الصحف البريطانية الكبرى مثل " التايمز " و " جلوب " Globe اللندنية ، والأخيرة جريدة ناطقة بلسان وزارة الخارجية البريطانية .
حثت جريدة جلوب الحكومات على تهجير اليهود من أوروبا إلى فلسطين لتكوين الدولة اليهودية هناك .
أما جريدة التايمز فقد ركزت على أن اليهود فى غرب أوروبا يمتلكون القوة المالية التى تمكنهم من شراء الأراضى فى فلسطين ، أو استئجارها وإرسال أعداد كبيرة من المهاجرين للاستقرار فيها ، وشرطت ذلك بضرورة حماية الدول الكبرى لهذا المخطط .
وبذلك يتضح تسخير الساسة البروتستانت فى إنجلترا لرجال الأعمال اليهود لشراء أراضى فى فلسطين وترحيل من هم دونهم إلى هناك .

كذلك فقد نبهت السياسة الاستعمارية إلى أن " قيام دولة يهودية سيفصل بين تركيا ومصر " .
فى 1839 ؛ العام الذى احتلت فيه بريطانيا اليمن ، وأدارت الحرب المصرية السورية ، نشرت صحيفة " كوارترلى ريفيو " Quarterly Review البريطانية الشهيرة مقالاً لشافتسبرى من ثلاثين صفحة بعنوان " دولة وآمال اليهود " .
انتقد فيه الداعين إلى دمج اليهود فى المجتمعات الغربية ، وانتهى بخصوص هذه النقطة إلى أن اليهود لا يمكن أن يندمجوا فى أى مجتمع غير يهودى ، ولذلك فإن فلسطين هى المكان الوحيد الذى لن يشعروا فيه بالغربة .
وعارض فكرة انتظار عودة المسيح بالمشيئة الإلهية ؛ لأنه من الممكن التدخل البشرى ، وكان هذا الأمر يعد كفراً وأمراً مستحيلاً عند اليهود انفسهم فى تلك الفترة .
وفى أثناء انعقاد مؤتمر لندن فى 1840 ، قدم شافتسبرى مشروعاً إلى بالمرستون كان يحمل اسم " أرض بلا شعب لشعب بلا أرض " .

حث فيه الحكومة البريطانية على أن يكون إقرار اليهود فى فلسطين تحت الحماية البريطانية ، وحذرها إن هى تقاعست عن تنفيذ هذا العمل فإن هناك دولاً أخرى مثل روسيا وفرنسا ستقوم بتنفيذه .
وسواء اقتنع بالمرستون أو رأى أن المخطط يخدم السياسة البريطانية ، فإنه وعد المجتمعون فى المؤتمر بتبنى مشروع يهدف إلى إقرار اليهود فوق أرض فلسطين التوراتية .
صاحب هذا المشروع ضجة إعلامية روجت له بين القادة السياسيين فى أوروبا وأميركا ، وأجرى شافتسبرى عدة أبحاث توراتية ، كان نتيجتها الإعراب عن احترام البروتستانت والغرب الأوروبى للشعب اليهودى المقدس ، شعب الله القديم الذى يجب أن يعود إلى الأرض المقدسة ، وتم الترويج لأن السبيل الوحيد إلى رفع الظلم عن اليهود وإصلاح أخطاء المسيحيين الغربيين تجاههم ، هو إعادتهم إلى فلسطين فى الشرق . أى أن أخطاء الغرب يتحملها الشرق .
وبسبب التراث التوراتى ابتدع مقولة وروج لها الإعلام الغربى حتى أصبحت بالنسبة للغرب حقيقة ثابتة وهى أن علاقة اليهود بفلسطين " وطن بدون شعب لشعب بدون وطن " . فقد تحولت كلمة أرض إلى وطن أدت عمليات الهجرة والاستيطان اليهودى فى فلسطين بسبب مخططات " بالمرستون " و " ديزرائيلى " ، وأموال " روتشيلد " و " مونتفيورى " ، إلأى أن بلغ عدد اليهود فى فلسطين 8 آلاف ، واستولوا على حوالى خمسة آلاف فدان .
وبعدما نشر " هرتزل " كتابه عن الدولة اليهودية فى فلسطين سنة 1896 بلغ عددهم 25 ألف ، استولوا على 2% من الأراضى المزروعة فى فلسطين ، وكان العرب 800.000 ولديهم 98% من الأراضى .

بعد صدور تصريح بالفور فى 1917 ، كان عدد اليهود فيها لا يزيد عن 48 ألف يستولون على 3.5 % من الأراضى المزروعة فى فلسطين ، بينما كان العرب حوالى 920.000 يملكون 96.5 % من الأراضى .

ويوم صدر قرار التقسيم من الجمعية العامة للأمم المتحدة كان عدد اليهود حوالى 300.000 ، يستولون على 6% من الأراضى ، فى مقابل مليون ومئة ألف عربى يملكون 94 % من أرضها .

ويوم أعلن عن قيام الدولة اليهودية فى فلسطين كان عدد اليهود فيها لا يزيد مطلقاً عن 400.000 ، استولوا على 7% من الأراضى ، فى مقابل مليون ومئة وخمسين ألف عربى يملكون 93% من الأراضى [xxii].

فى 29 نوفمبر 1947، صدر قرار الأمم المتحدة رقم 181 بتقسيم فلسطين ، نص القرار على استيلاء الصهاينة على 54% من مساحة فلسطين الكلية ، بينما يتبقى للعرب 45% من المساحة الكلية لفلسطين ، و1% الباقية والتى تشتمل القدس تحت إشراف دولى .

قبلته الوكالة اليهودية ، بينما رفضته الجماعات الإرهابية الصهيونية ، وعرب فلسطين والدول العربية الأخرى الأعضاء فى جامعة الدول العربية .

فتم إعلان قيام الكيان الصهيونى (إسرائيل) فى فلسطين فى 14 مايو 1948 ، واندلعت الحرب فى اليوم التالى تحت قيادة الملك عبد الله الأول كقائد عام ، بينما كانت القيادة الفعلية للجيش العربى (الجيش الأردنى) تحت قيادة الجنرال جلوب باشا البريطانى [xxiii] . فانتهت الحرب باستيلاء الصهاينة على 78% من المساحة الكلية لفلسطين ، منها جنوب القدس .

وبعد مؤامرة حلف الأطلنطى ضد مصر عبد الناصر ، قامت إسرائيل بالاعتداء على الأراضى المصرية والسورية فى مايو 1967 [xxiv] ، واستولت على 92% من أراضى فلسطين شاملة غزة والضفة الغربية وباقى القدس ، بالإضافة إلى شبه جزيرة سيناء وهضبة الجولان .

فى الثانى والعشرين من نوفمبر أجمع مجلس الأمن على مشروع القرار البريطانى ، وهو القرار الشهير برقم 242 لعام 1967

نص القرار 242 فيما نص على مبدأين أساسيين أولهما : ضرورة انسحاب القوات الاسرائيلية من أراض احتُلت فى الحرب الأخيرة ، وهو ما يعنى ضمناً إقرار الأمم المتحدة باستيلاء إسرائيل على الأراضى التى احتلتها فى 1948 ، أى ما يعادل 78% من مساحة فلسطين الكلية .

وثانيهما : إقامة سلام عادل ودائم فى الشرق الأوسط ومن أجل ذلك يتعين على جميع دول المنطقة ، بما فيها إسرائيل ، أن تنهى جميع ادعاءات وحالات الحرب وأن تحترم وتعترف بالسيادة ووحدة الأراضى والاستقلال السياسى لكل دولة . عن طريق إجراءات من بينها إنشاء مناطق منزوعة السلاح (المقصود بها الجولان وسيناء وجنوب لبنان) .

رفضت سوريا والعراق هذا القرار ، بينما طالبت مصر والأردن بانسحاب إسرائيل من جميع الأراضى المحتلة كشرط مسبق لأى مفاوضات .

فرفضت إسرائيل ذلك على أساس أن مسألتى الانسحاب واللاجئين والمسائل الأخرى لا يمكن أن تسوى إلا عن طريق المفاوضات الثنائية المباشرة مع الدول العربية وعقد معاهدة سلم شاملة .

ومع ذلك اضطرت مصر عبد الناصر إلى قبول هذا القرار كمرحلة تكتيكية حتى استعادة الجيش المصرى قوته . مما يعنى اعتراف مصر الضمنى بإسرائيل كطرف آخر ، واعتراف بالمساحة التى استولت عليها من أرض فلسطين التاريخية .

وهكذا تحولت المشكلة الفلسطينية إلى مشكلة القدس وعودة اللاجئين وتوارت فلسطين كمشكلة اساسية خلف تلك الخلفية التى تحدثنا عنها .

بعد وفاة جمال عبد الناصر – نتيجة أيضاً لضغوط سياسية عربية وأجنبية – وبعد حرب أكتوبر وتبعاتها وزيارة السادات لإسرائيل فى نوفمبر 1977 ، فى الفترة من 5 سبتمبر إلى 17 سبتمبر 1978 تم عقد مؤتمر كامب ديفيد بحضور الرئيسين المصرى والأميركى ورئيس الوزراء الإسرائيلى . وأثار هذا المؤتمر من الضجة مثل ما أثارت زيارة الرئيس السادات للقدس والكنيسيت الإسرائيلى .

لاقى هذا المؤتمر تعقيدات كبيرة من الجانبين المصرى والإسرائيلى ، ولكن بسبب الضغوط الشديدة التى مارسها الرئيس الأميركى كارتر على الرئيس السادات - الذى كان عملياً محددة أقامته فى كامب ديفيد ومحاصر بها - التى وصلت إلى حد التهديد الضمنى بقطع العلاقات الكاملة بين مصر وأميركا ، مما يوحى بإمكانية القضاء على الوفد المصرى كله هناك ، إذا لم يتم التوصل إلى حل ، صدر عن المؤتمر وثيقتان أساسيتان ؛ سميت الأولى " إطار السلام فى الشرق الأوسط " ، وسميت الثانية " إطار لإبرام معاهدة سلام بين مصر وإسرائيل " .

تضمنت الوثيقة الأولى ترتيبات للأمن والسلام تصبح جزء من أى تسوية شاملة بين إسرائيل وكل دولة من جيرانها تتضمن مناطق منزوعة السلاح ومناطق ذات تسليح محدود ، ومحطات إنذار مبكر ، وتواجد قوات دولية

وبالفعل صدرت معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية فى 1979 كتطبيق عملى لتنفيذ قرار الأمم المتحدة رقم 242 لسنة 1967 من جانب واحد وهو الجانب العربى [xxv] .

واستكمالاً لهذه المسيرة فى التنازلات الناتجة عن الضغوط الغربية والدعم الخفى من بعض القيادات العربية ، جاءت اتفاقية أسولو فى 1993 .

نصت هذه الاتفاقية على أن يكون للفلسطينيين حكم ذاتى فى 13% من 42% من ثلث المساحة الكلية لفلسطين التاريخية . أى ما يعادل 2.5 % تقريباً من المساحة الكلية لفلسطين ، فيما عرف بمنطقتى غزة وأريحا ،

أو إعادة الانتشار . وهذه المساحة هى محور التخطيط لسياسة الدولتين ، فإذا ما تم الاعتراف بدولة فلسطينية ستكون فى هذه المساحة .

لكن الشاهد أن الصهاينة ، أو الغرب على العموم لا يريدون فى فلسطين كلها غير اليهود ، لا مسلم ولا مسيحى شرق ، ويريدون نقلهم إلى الأردن وسيناء ، فى نفس الوقت الذى ظهرت فيه إشارة لاحتمال تراجع السلطة الفلسطينية عن الالتزام باتفاقية أوسلو .

وهكذا أدركنا أن المشكلة الفلسطينية أساسها مخطط البروتستانتية الغربية لزرع العنصر اليهودى بابتداع الصهيونية السياسية – وهى تختلف تماماً عن الصهيونية الدينية – التى قامت على أساس تمويل رجال المال اليهود للمثقفين اليهود بالترويج بين اليهود للذهاب إلى فلسطين ، وعلى الرغم من ذلك كان الشعب اليهودى يرفض كل هذه الإغراءات منذ أيام حملة نابليون بونابرت ، وعندما طلب هرتزل من الانجليز احتلال مصر لضمان حماية الهاينة فى فلسطين تم ذلك فى 1882 ضمن أهداف أخرى ، ولذا فإن جيمس بالفور اضطر إلى التصريح بتعاطف بريطانيا معهم لتشجيعهم على الذهاب إلى فلسطين ، على عكس ما يروج له الإعلام من أن تصريح بالفور صدر نتيجة ضغوط يهودية .

وبالتالى فإن تصريح ترامب بنقل السفارة الأميركية من تل أبيب إلى القدس وإعلان القدس عاصمة موحدة لإسرائيل ؛ ليس بجديد على السياسة الفعلية الحادثة فى فلسطين وإنما هو تقرير أو تقنين وضع .

وذلك ما أرعب دول حلف الأطلنطى التى وقفت له بالمرصاد حال إعلانه هذا القرار ، ليس تعاطفاً مع الفلسطينيين أو العرب ، وإنما لأن هذا القرار يعنى أن أميركا ستأكل الكعكة وحدها .

مرفق خريطة بتسلسل مراحل استيلاء الصاهينة على فلسطين منذ 1946 حتى 2010 ، من وضع مركز الدراسات الفلسطينية التابع لمنظمة التحرير الفلسطينة .

PALESTINIAN LOSS OF LAND 1946-2010
Jewish Land
Palestinian Land
PALESTINE
1946
Israel Land
Palestinian Land
PALESTINE
ISRAEL
UN PLAN
1947
Israel Land
Palestinian Land
PALESTINE
ISRAEL
1967
Israel Land
Palestinian Land
ISRAEL
2010

إسحاق موسى الحسيني
علم من أعلام مثقفي القدس
عميد الأدب الفلسطيني

نهى يسري عبد الغني
باحثة وقاصة وإعلامية

من هو :

إسحاق موسى الحسيني ، كاتب وباحث ومفكر وأديب عربي فلسطيني كان له دوره في الساحة الثقافية العربية المعاصرة وذلك من خلال مؤلفاته ودراساته ونشاطاته التربوية والتعليمية . فضلا عن إسهاماته في عضوية مؤسسات علمية وبحثية عديدة منتشرة في طول الوطن العربي الكبير وعرضه ونستطيع القول ، وبكل ثقة ، أن الرجل كان موسوعة ثقافية قائمة بذاتها ، وطوال 50 عاما ، قدم الأستاذ الدكتور إسحاق موسى الحسيني صورة ناصعة للمثقف العربي المتسلح بثقافة التراث والمنفتح على الثقافة الغربية المعاصرة ، لذلك اعتمدت آراءه بخصوص تجديد اللغة العربية وتطوير قواعد نحوها وابتكار السبل الكفيلة بتسيير تدريس مادة الأدب العربي بروح عصرية . وفوق هذا وذاك كان الحسيني كاتب قصة معروف فضلا عن كونه كاتب مقالة متنور وباختصار فان الحسيني في حقبة من الزمن ، ملأ الدنيا وشغل الناس ولم يقتصر إنتاجه على الجانب الأدبي ، بل اتسع ليشمل الجانبين الديني الإسلامي والأدبي ـ اللغوي حتى انه لم يترك قضية أدبية أو فكرية أو ثقافية برزت في عصره إلا وتناولها . ولم يبخل أبدا بتقديم الجهد والتشجيع والتوجيه لتلاميذه وزملائه .. وبهدف إلقاء الضوء على دوره في تنمية حركة الفكر العربي المعاصر لابد من الوقوف قليلا عند سيرته الذاتية والعلمية .

الميلاد والوفاة والتعليم :

ولد الأستاذ الدكتور / اسحق موسى الحسيني في مدينة القدس سنة 1904 وثمة من يقول انهولد سنة 1908 وانتقل رحمه الله يوم الاثنين السابع عشر من شهر كانون الأول / ديسمبر سنة 1990 وبذلك يكون قد عاش قرابة (86) سنة . وكان والده موسى بن صالح بن عمر الحسيني الكبير نقيبا لأشراف القدس ، وقد بدأ حياته الدراسية في الكتاتيب ، ثم انتقل إلى المدارس الرسمية (الحكومية) ، وأنهى دراسته الثانوية في ما

كانت تسمى آنذاك المدرسة الرشيدية ، وفيها تتلمذ في علوم اللغة العربية وآدابها على يد الأستاذ محمد إسعاف النشا شيبي رحمه الله . وفي سنة 1923 التحق بالجامعة الأمريكية في القاهرة وحصل فيها على شهادة الدبلوم في الصحافة سنة 1926 وبدأ العمل ، على اثر تخرجه ، معلما في المدرسة الرشيدية نفسها .. لكنه لم يمكث في وظيفة التعليم طويلا إذ سرعان ما التحق بالجامعة المصرية (جامعة القاهرة فيمابعد) وحصل على ليسانس الآداب منها سنة 1930 .

قالوا عن اسحاق :

يقول الدكتور / تيسير الناشف في كتابه الموسوم : ((مفكرون فلسطينيون في القرن العشرين)) الذي نشره مركز الدراسات الفلسطينية بجامعة بغداد سنة 1981 : أن الدكتور طه حسين كان من ابرز أساتذة الحسيني في هذه المرحلة . ولم يقنع الحسيني بما حصله من علوم وآداب ، اذ قرر السفر إلى إنكلترا والالتحاق بمعهد الدراسات الشرقية التابع لجامعة لندن ليدرس الآداب واللغات السامية على يد أستاذه المستشرق الإنكليزي المشهور هاملتون كب Gibb وقد تخرج في هذا المعهد سنة 1932 كما حصل على دبلوم في الفلسفة سنة 1934 .

الرحلة والمناصب :

وبعد عودته إلى موطنه فلسطين ، عين مدرسا للغة العربية والأدب العربي في الكلية العربية . وفي مطلع سنة 1946 تألفت في فلسطين ((لجنة الثقافة العربية للتأليف والترجمة والنشر ..)) واختير الحسيني سكرتيرا (أمينا عاما) لها وكان يشغل آنذاك منصب المفتش الأول للغة العربية في ما كان يسمى آنذاك ((إدارة المعارف العامة في فلسطين)) ، واستمر في هذا العمل حتى سنة 1948 . وقد انتدبته الإدارة هذه ليمثلها في المؤتمر الثقافي العربي الذي عقد في مصيف بيت مري بلبنان أوائل أيلول / سبتمبر سنة 1947 . وقبيل حرب فلسطين في سنة 1948 ، غادر الحسيني بلاده فلسطين إلى لبنان وأقام في بيروت ، حيث

عين في هذه السنة أستاذا للغة العربية والأدب العربي في جامعتها الأمريكية .. وفي سنة 1952 سافر الى كندا بناء على دعوة تلقاها من جامعة من جامعة ما كجيل في مونتريال وذلك لتدريس مادة الأدب العربي وفي أواخر سنة 1955 عاد الى القاهرة بناء على دعوة تلقاها من الأستاذ والمربي الكبير ساطع ألحصري عميد معهد الدراسات العربية العالمية التابع لجامعة الدول العربية للتدريس في المعهد . وقد كلف آنذاك من مجلس العلوم والفنون والآداب المصري لتأليف كتاب عن الأدب العربي المعاصر . وفي المعهد اشرف على الكثير من رسائل الماجستير واطروحات الدكتوراه فضلا عن عمله الآخر رئيسا لقسم اللغة العربية وآدابها في الجامعة الأمريكية وبقى كذلك الى أن أحال نفسه على التقاعد في سنة 1967 .

اسحاق عميد الأدب الفلسطيني :

كان الحسيني عضوا في العديد من المجامع والمؤسسات العلمية العربية ، فمنذ سنة 1960 اختاره المجمع العلمي العراقي عضوا فيه وبعد سنة من ذلك أصبح عضوا في مجمع اللغة العربية في القاهرة ثم عين عضوا في مجمع البحوث الإسلامية في الأزهر الشريف سنة 1962 وفوق ذلك اختاره المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية في الأردن عضوا فيه . كما عين سنة 1982 عضوا في مجلس أمناء كلية العلوم والتكنلوجيا التابعة لجامعة القدس وفي الوقت ذاته كان عميدا لكلية الآداب للبنات في الجامعة ذاتها .. وقد حصل على أوسمة وتكريمات كثيرة لعل من أبرزها حصوله على وسام العلوم والفنون من مصر سنة 1963 ولقب عميد الأدب الفلسطيني سنة 1986 .

اسحاق يفقد مكتبته :

في 20 آب / أغسطس سنة 1978 أرسل إليه الدكتور تيسير الناشف رسالة يخبره فيها عزمه تأليف كتاب عن عدد من المفكرين الفلسطينيين . وقد أجاب الحسيني على الرسالة بكتاب مؤرخ في 12

ايلول / سبتمبر 1978 جاء فيه انه فقد مكتبته إبان العدوان الإسرائيلي على فلسطين سنة 1948 وليس من السهولة عليه تقديم كشف بنشاطاته العلمية .

جوانب نشاطه تبلورت في اربع جوانب :

– الجانب الديني وابرز ما قدمه في هذا الجانب كتابيه ((الأخوان المسلمون)) و ((المسلمون بين الماضي والحاضر)) .

– الجانب العلمي وينحصر في تأليفه وإصداره عددا من الكتب أبرزها كتابيه ((ابن قتيبة حياته وآثاره بالإنكليزية)) و ((أزمة الفكر العربي)) فضلا عن أبحاثه ودراساته المقدمة الى مجمع اللغة العربية في القاهرة ..

– الجانب الأدبي فقدم فيه الدكتور الحسيني عددا من الكتب أبرزها كتبه ((المدخل إلى تاريخ الأدب المعاصر)) و((النقد الأدبي المعاصر)) و ((هل الأدباء بشر)) و ((مذكرات دجاجة))

– الجانب السياسي وفيه ألف الدكتور الحسيني عددا من الكتب التي تناولت التأكيد على عروبة بيت المقدس ، فضلا عن مجاميع من الدراسات التي تركزت حول القضية الفلسطيني.

من مؤلفات الدكتور الحسيني :

من مؤلفات الأستاذ الدكتور الحسيني المنشورة أطروحته للدكتوراه التي قدمها سنة 1934 إلى معهد الدراسات الشرقية التابع لجامعة لندن وكانت بعنوان ((ابن قتيبة :حياته وآثاره)) وقد اشرف عليها كما سبق ان قدمنا المستشرق الإنكليزي هاملتون كب صاحب كتابي (المحمدية) و((المجتمع الإسلامي والغرب)) ويعد من ابرز المستشرقين وأكثرهم رصانة علمية وحيادية وموضوعية . وللحسيني كتاب بعنوان ((رأي في تدريس اللغة العربية))نشره في القدس سنة 1937 ، وكذلك كتاب

((علماء المشرقيات في إنكلترا)) ونشره في القدس سنة 1940 وكتاب (مذكرات دجاجة) وهو يحمل فكرة فلسفية في قالب قصصي وطبع في القاهرة سنة 1943 وكتاب ((فن انشاء الشعر العربي)) بالفرنسية ونشره سنة 1945 وكتاب ((عودة السفينة)) وهو معالجة لقضايا اجتماعية وفكرية ونشر في القدس سنة 1945 وسلسلة تربوية بعنوان سلسلة الطرائف للأطفال بأربعة أجزاء ونشرت في القدس سنة 1947 وكتاب مترجم عن الإنكليزية بعنوان ((الإسلام في نظر الغرب)) ونشر في بيروت سنة 1953 وكتاب ((أزمة الفكر العربي)) ونشره في بيروت سنة 1954 وكتاب ((أبحاث في ماضي المسلمين وحاضرهم)) ونشر سنة 1966 .

أعمال الحسيني الأدبية :

- " وردان الوفي"، للأطفال (بالاشتراك)، دار الأندلس، القدس، 1942.
- "أحمد المدلل"، حكاية للأطفال، مكتبة الأندلس، القدس
- "مذكرات دجاجة"، رواية، دار المعارف، القاهرة، 1943.
- "عودة السفينة"، مكتبة فلسطين العلمية، القدس، 1945.
- "فن إنشاد الشعر العربي" (ترجمة من الفرنسية، بالاشتراك مع أسطفان سالم(، مطبعة الفرنسيسكان، القدس، 1945.
- "سلسلة طرائف"، للأطفال (بالاشتراك)، مكتبة الأندلس، القدس، 1947.
- "هل الأدباء بشر"، دار العلم للملايين، بيروت، 1950.
- "النقد الأدبي المعاصر في الربع الأول من القرن العشرين"، بيروت، 1950.
- المدخل لدراسة الأدب العربي المعاصر"، القاهرة، 1964.
- "الأدب والقومية العربية" (محاضرات ألقاها في معهد الدراسات العربية العالية)، القاهرة، 1967.

- "أديب العربية محمّد إسعاف النشاشيبي) "سلسلة محاضرات ألقاها في معهد الدراسات العربية العالية سنة 1956)، دار الطفل العربي، القدس، 1987.
- "خليل السكاكيني الأديب المجدد"، مركز الأبحاث الإسلامية، القدس، 1989.

في موضوعات أخرى:

- "رأي في تدريس اللغة العربية"، القدس، 1937.
- "علماء المشرقيات في إنجلترا"، القدس، 1940.
- "الإخوان المسلمون كبرى الحركات الإسلامية الحديثة"، بيروت، 1952.
- "أزمة الفكر العربي"، بيروت، 1954 .
- قضايا عربية معاصرة"، بيروت، 1978

دراسات اخري لأسحاق الحسيني :

فثمة دراسات أخرى له منها أن دائرة المعارف البريطانية نشرت في عدد كانون الثاني / يناير سنة 1948 نتاجا للحسيني عن ((التأليف في البلاد العربية)) ، خلال سنة 1947 كما ظهر له مقال بعنوان ((أظهر في فلسطين أدب وأدباء)) في مجلة الثقافة ..كما أن له كتابا ألفه بالاشتراك مع فايز الغول بعنوان ((العروض السهل)) وطبع في القدس سنة 1945 .. كما اشترك مع الأب اسطيفان سالم في ترجمة كتاب عن اللغة الفرنسية بعنوان ((فن إنشاء الشعر الغربي)) طبع في القدس سنة 1945 واشترك مع عيسى عطا الله في تأليف كتاب مدرسي بعنوان ((الأساس في قواعد اللغة العربية)) وطبعته دار المعارف بمصر سنة 1948 وفيه ، كما يقول الدكتور الناشف ، ينحو المؤلفان منحى جديدا في تقويم القواعد وربط أبوابها وتيسير صعابها ويقولان بأنه ليست كل القواعد ضرورية ومن المفيد تجريد اللغة العربية من القواعد الزائدة . وقد توسع في هذا وألف كتاب بعنوان ((أساليب تدريس اللغة العربية))

طبعته دار الكتب في بيروت سنة 1955 . ويقينا أن للحسيني مؤلفات مخطوطة تضمها مكتبته ومخلفاته في القدس المحتلة لعل من أبرزها مخطوطة عن أدباء فلسطين .

الفكر العربي يعاني من أزمة خانقة :

يعتقد الدكتور الحسيني أن الفكر العربي المعاصر يعاني من أزمة خانقة ، والذين يجولون بأبصارهم في المجتمع العربي ، ويتحسسون ما يجري فيه يرون مظاهر هذه ألازمة بوضوح ، لكنه يعود فيقول أن ذلك ليس مدعاة لليأس والتشاؤم ، فالأزمات الفكرية ظواهر طبيعية في حياة الأمم والمجتمع العربي ، شأنه كشأن سائر المجتمعات ، يمر الآن في دور انتقال من حياة قديمة إلى حياة حديثة تحاول أن تنسجم مع حيوات سائر الأمم القريبة والبعيدة ، ويعد الحسيني الأحداث التي واجهتها الأمة العربية بعد الحرب الأولى وكانت لها آثارها في جميع مرافق الحياة وأبرزها تحرر البلاد العربية وازدياد الإقبال على العلم ، وانتشار الصحف ووسائل الإعلام المختلفة ، وظهور مذاهب وآراء جديدة بعد الحربين العالميتين ، واصطدام هذه المذاهب والآراء بالمذاهب والآراء القديمة وما نجم عن ذلك من متغيرات فكرية وثقافية أثرت في حياة الناس ودفعتهم لان يكون لهم دور حقيقي في بناء مجتمعاتهم المتحضرة .

وفي رأيه أن كل تلك التحولات أثارت مشكلات جمة أمام المجتمع العربي مما استدعى إيجاد حلول لذلك ، واستدعاء الحلول ، كما يعتقد ، يولد أزمة وإذا ما عالج المفكرون هذه الأزمة بأناة وتجرد وجرأة انفرج الحل عن خير عميم لهم ولمجتمعاتهم . ويضيف الحسيني إلى ذلك قوله انه ليس في الحياة حل ابدي لان الحل ينصب على نوع من المشكلات والحياة النامية المتطورة تولد المشكلات الواحدة تلو الأخرى والعقول المدبرة المفكرة لابد أن تعتمل لتبدع حلا بعد حل ، وهكذا يرافق الحل المشكلة ويسير الاثنان في خطين متوازين .

إن هذا هو تاريخ الحضارة البشرية منذ بدايتها وحتى عصرنا الراهن

.. وقد يكون من المناسب الإشارة هنا إلى أن الحسيني وضع يده منذ زمن مبكر على حقيقة المستشرق برنا رد لويس وكتاباته التي يطعن فيها أصالة الفكر العربي ويقلل من دور العرب في التاريخ ، ففي أوائل الخمسينات من القرن الماضي ألف برنا رد لويس كتابه ((العرب في التاريخ)) وادعى فيه بأنه لا وجود لأمة عربية ويرد الحسيني على ذلك ويثبت خطأ حجج لويس هذه ويقرر أن لأزمة الفكر خمسة مظاهر ، فالمظهر الأول هو الحيرة ، فالعرب حائرون لايدرون أين يتجهون والمظهر الثاني هو الارتجال والحائر لايمكن إلا أن يكون مرتجلا .. والمشاكل عند العرب تدنو دنوا كبيرا يحول دون رؤيتها رؤية واضحة ، وحين يفاجأ العرب بها يرتجلون حلولا فيصيبون مرة ويخطئون مرات ، والمظهر الثالث للازمة الفكرية هو السير وراء ما اسماه بـ (الشعورية وفقدان العقلانية) أي التفكير الصحيح القائم على المنطق والدرس والتأمل . ويشير الحسيني الى أن المفكرين العرب لم يشتركوا في بناء الحاضر العربي اشتراكا فعليا ، لأبل لم يفسح لهم مجال العمل.

والمظهر الرابع فقدان الجرأة وغياب الحرية الفكرية وعدم نقد ألذات ، ويرى الحسيني انه لم يتكامل عند العرب الإحضساس بالمسؤولية الجماعية حتى ينشأ عنه قول الحق ، وصاحب الفكر عند العرب موضع شبهة وإذا خرج عن المألوف اتهم بالمروق وهكذا يظل الفكر الحر حبيسا في الصدور .

ويقف الحسيني عند المظهر الخامس للازمة الفكرية وهو تركيز البصر في القديم بدلا من النظر إلى المستقبل واحترام سنن القدامى إلى حد التقديس فالعرب يرددون باستمرار عبارة مفادها انه لا يصلح هذا الزمن إلا بما صلح به أوله ، ومعنى هذه العبارة لايعني الركون عند الماضي ورفض نزعة التقدم وترك خيرات الأرض في باطنها وعدم الأقدام على عمرانها ن بل لابد من تحقيق مقاصد وجود الإنسان على هذه الأرض والتي تتلخص بالعبادة والخلافة والعمران .

وينتقل الحسيني بعد ذلك إلى ذكر الذريعة التي لا يفتأ يرددها العرب

من أنهم مروا في تاريخهم بمراحل من القوة والسيادة وتألق الفكر والسيادة والعناية بالعلم والتجريب وخدمة الحضارة الإنسانية وأنهم تركوا تراثا علميا وإنسانيا يحق لهم أن يباهوا به الأمم ، غير انه لا يلبث أن يستدرك على ذلك بقوله : ولكن تلك المراحل قد مضت ولغرض استعادتها لابد من توفر شرطين الأول البحث عن عوامل النهوض . والثاني العزم والتصميم علة وصل القديم بالحديث ..

ولا ينسى الحسيني الإشارة إلى أنظمة الحكم العربية وتخلفها عن مواكبة عصر التقدم ويدعو إلى وضع أسس علمية قويمة للتقدم المادي من خلال التصنيع وإصلاح الريف واستثمار الثروات الطبيعية والإقبال على العلوم الحديثة فلا تردد ولا إحجام مع ضرورة التركيز على نشر أساليب التفكير العلمي والتفاعل مع الحياة ونبذ النزعات العشائرية والطائفية والأخذ بالنظم الدستورية التي تساوي بين جميع المواطنين مساواة كافة في الحقوق والواجبات مع مراعاة حقوق المرأة وضمان مشاركتها في صنع المجتمع الجديد خاصة وان الإسلام ، كدين وكعقيدة وشريعة ، قد أكرمها واعزها وأخيرا فان الحسيني يدعو العرب لان يكونوا بمستوى التحدي الذي يواجهونه سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا وثقافيًا .

رحم الله الحسيني ، فقد كان مخلصا لوطنه وأمته وجزاه خيرا على ما قدم وقمين بنا جميعا أن نذكره ونراجع سيرته ونقف عند منجزاته المفيدة لحاضرنا ومستقبلنا .

«انتفاضة الأقصى»
والقصّ في
الأدب الفلسطيني

"رواية ٠ ربيع حار – رحلة الصبر والصبار" لسحر خليفة نموذجاً"

بقلم: منى بركات

تعني الانتفاضة الفلسطينية الثانية أو «انتفاضة الأقصى» (اندلعت في 28 سبتمبر 2000 وتوقفت فعليًّا في 8 فبراير 2005) تلك الحالة التي كان عليها الشعب الفلسطيني في مواجهة قوة غاشمة مدجّجة بأحدث أنواع الأسلحة دفاعًا عن القدس([44]).

وكانت شرارة اندلاعها دخول رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق «أرئيل شارون» إلى باحة المسجد الأقصى برفقة حراسه، الأمر الذي دفع جموع المصلين إلى التجمهر ومحاولة التصدي له؛ ومن ثم اندلعت أول أعمال العنف في هذه الانتفاضة. وقد مرت مناطق الضفة الغربية وقطاع غزة خلالها بعدّة اجتياحات إسرائيلية منها عملية الدرع الواقي، وأمطار الصيف، والرصاص المصبوب. وقد راح ضحيتها من الجانب الفلسطيني 4412 شهيدًا و48322 جريحًا، أما خسائر العدو الإسرائيلي فتعدادها 1069 قتيلًا و4500 جريحًا وعطب 50 دبابة من نوع ميركافا وتدمير عدد من الجيبات العسكرية والمدرعات الإسرائيلية.

وقد فرضت «انتفاضة الأقصى» وجودها ودلالاتها على الأدب العربي الفلسطيني, فكان حقًّا علينا أن نسلط الضوء عليها وعلى من تناولها من الأدباء. ويُعتبر الأدب العربي الفلسطيني الأكثر انشغالًا - من

([44]) الانتفاضة شكل من المواجهة والعنف؛ هو رد فعل وشكل من أشكال المقاومة الشعبية، والمقاومة في جوهرها مشروعة وعادلة. ومن صور «انتفاضة الأقصى»: مشهد امرأة تصرخ في وجه جندي إسرائيلي, وشاب معلق بجدران بيته المتهدم، وطفل يلقي حجرًا على دبابة, وملاحقة الجندي الإسرائيلي المسلح للأطفال على الطرقات وفى الأزقة والحارات، وعند الحواجز والمعابر وحول المستوطنات، وقد أضافت الانتفاضة صورة لم يعهدها كفاح الشعوب من قبل, وهى «العمليات الاستشهادية», كما أضافت صورة «التصفية الجسدية» لبعض الرموز السياسية, وهو ما تم بصورة شرسة من آلة الحرب الإسرائيلية, نحو رموز ساسة فلسطينيين؛ بداية من النشيطين الشباب إلى قادة وزعماء سياسيين!، ثم أضافت الانتفاضة نضال المرأة الفلسطينية, وكأنها أشعلت حمية المرأة الفلسطينية؛ فلم يعد دورها محدودا بحثّ رجلها أو ابنها على الكفاح من أجل الأرض والعرض؛ إذ أصبحت عضوًا فاعلًا, بداية من التصدي للجنود بأصواتهن وأجسادهن – وقت الاقتحامات والمداهمات – وحتى المشاركة في العمليات الاستشهادية بعدد لافت للانتباه، وأكثر منه أعتقل في السجون، وغيرها.

بين الأدب العربي - بموضوع «انتفاضة الأقصى»؛ حيث تحدث الأدباء الفلسطينيون عن أعوام الانتفاضة وما شهدته من أعمال بطولية قام بها الفلسطينيون، ومآس لكثير من العائلات؛ بهدف التعبير عن هول التجربة ذاتها، وحفظ خصوصية تلك التجربة بكل طزاجتها وتفرُّدها؛ بحيث تصبح دومًا نبراسًا هاديًا للعامة والخاصة.

والواقع أننا في حاجة إلى رصد تجربة «انتفاضة الأقصى» وتأمّلها، والمبدعون الموهوبون هم فرصتنا لتسجيل تلك التجربة؛ كي تقف مؤشرات الزمن عند تلك اللحظات أو الأزمنة الخاصة لتصبح عونًا ودعمًا، فضلًا عن أهمية تلك الأعمال في تغطية الجانب النفسي والتربوي الضروري للأجيال الجديدة؛ حتى تصمد أمام تحدياتها الآتية يوما ما؛ أي الجانب التوثيقي.

ومن خلال دراستنا للروايات التي عبرت عن «انتفاضة الأقصى» وجدنا أن الانطباع العام الذي تثيره أغلب تلك الأعمال على قلّتها (نسبيًّا): أن «انتفاضة الأقصى» حادث تاريخي لن يمرّ دون أن ترصده الأقلام([45]), وبالتالي يبقى لأدب «انتفاضة الأقصى» دوره الهام في الذاكرة القومية للشعوب.

وهذه بعض محاور أفكار الروايات التي عبرت عن «انتفاضة الأقصى», ورصدت أحداثها:

([45]) "ويلاحظ في ذلك كله أن الروائي لم يصنع بطلًا واحدًا- على كثرة الأبطال الأسطوريين وغلبة أدوارهم – وإنما تحولت الانتفاضة- في حد ذاتها- إلى حالة (أسطورية) غير عادية, تنسج خيوطها هذه الحركة اليومية المستمرة من نضال آلاف الكوادر والمقاتلين في الأرض المحتلة, أو داخل المعتقلات الإسرائيلية غير الإنسانية, وحالة الحصار التي تفرض على المخيمات بشكل مستمر لإرغامهم على التسليم, أو استخدام الأسلحة المحرمة دوليا, وما أكثرها, للنيل من الأطفال والنساء والشباب الفلسطيني, أو –حتى- بمواجهة أولئك المتعاونين مع القوى الصهيونية ضد حركة المقاومة واستمرارها..."(د. مصطفى عبد الغني، **الاتجاه القومي في الرواية**، عالم المعرفة، 1995م، ص: 340.)

– ركزت معظم الروايات على الموضوعات الاجتماعية من مثل: صعوبات جمع الشمل([46])، وتصاريح الخروج من الأراضي المحتلة, وظروف المخيمات وعلاقات الناس في المخيم، ودور المرأة في الانتفاضة؛ وهو من إيجابيات الانتفاضة أن جعلت من دور المرأة في الحياة متكاملاً, وغير مقتصر على الدور التقليدي للمرأة بل شاركت في الكفاح.

– أبرزت أكثر الروايات الجانب الإنساني للإنسان العربي الفلسطيني, بالرغم من كل الوحشية التي يتعرض لها، وأيضًا أبرزت دور القيم الروحية في تزكية الانتفاضة، وخاصة الإشارة إلى محاولة اليهود سرقة المقدسات الإسلامية في القدس.

– أظهرت أغلب هذه القصص التزامًا قويًّا بالحرية، وبفضح قسوة العدو الإسرائيلي في مواجهة الانتفاضة وادعاءاته وإهماله المتعمّد لكل ظروف الحياة في الأرض المحتلة؛ خاصة في المخيمات؛ ليجبر الناس على ترك بلادهم والنزوح عنها. وذلك من خلال تناول قضايا عديدة مثل: تمسك الفلسطيني بأرضه وتراثه، ومصادرة الاحتلال الأرض وهدمه البيوت، وصعوبة التنقل وحظر التجوال، وقضايا العمال في الخط

([46]) لكي تضمن إسرائيل طرد العديد من الفلسطينيين استخدمت كل الذرائع من أجل عدم تمديد تصاريح الزيارة للأزواج. ومع اندلاع الانتفاضة الثانية في عام 2000 تم حظر دخول اللاجئين والنازحين الفلسطنيين ومواطني الدول العربية الراغبين في زيارة عائلاتهم أو العيش معهم، ومنهم زوجات لفلسطينيين في الضفة الغربية وغزة وأمهات لأولاد عاشوا في البلاد سنوات كثيرة. ومواطنات كثيرات تم فصلهن عن عائلاتهن لفترات طويلة، وأخريات تنازلت مسبقًا عن الخروج من الأراضي المحتلة وبقين في بيوتهن من دون تأشيرات. وفي عام 2006م – من دون تحذير مسبق– أيضًا اكتشف مواطنون من دول غرب وشرق أوروبا متزوجون من فلسطينيين أنهم لا يستطيعون العودة إلى بيوتهم؛ حيث تم رفض دخولهم من المعابر الحدودية فجأة. (انظر: عميره هاس، إسرائيل تُصعّب على المتزوجات من فلسطينيين لمّ الشمل العائلي، **جريدة القدس العربي**، صحيفة عربية يومية مستقلة: لندن، وتطبع في الوقت نفسه في لندن ونيويورك وفرانكفورت، عدد 11سبتمبر 2017م.)

الأخضر وألوان القهر التي تعرضوا لها واستغلالهم في ظروف غير إنسانية، والأحكام العسكرية، والسجن والاعتقال ومعاملة الأسرى غير الإنسانية، ووصف المعتقلات والزنازين وأقبية التحقيق، ومظاهرات الطلاب، والقتل، والاستشهاد، ومقاومة المحتل بمختلف ألوانها.

رواية «ربيع حار- رحلة الصبر والصبّار» رواية أنتجتها «انتفاضة الأقصى»

تدور أحداث رواية «سحر خليفة»([47]) «ربيع حار؛ رحلة الصبر والصبّار» في فلسطين المحتلة في الفترة اللاحقة لانهيار اتفاقية أوسلو واندلاع «انتفاضة الأقصى»، وما تبع ذلك من حصار واجتياح لمدن وقرى فلسطين التابعة للسلطة الوطنية الفلسطينية، والمذبحة الدموية في

([47]) تعد «سحر خليفة» (ولدت في نابلس عام 1941م) واحدة من أفضل كتاب الرواية في فلسطين، إن لم تكن أفضلهم جميعًا، ولعل تصدّرها لهذه المكانة يعود لأمور عديدة منها: أنها تحمل هموم الإنسان الفلسطيني داخل الوطن المحتل (فهي ليست كاتبة جمالية تصطاد موقفاً أو تنسج حبكة تشوق القارئ ثم تنتهي الرواية بعد قراءتها)، بالإضافة إلى تمكنها من الأدوات الفنية (فهي فنانة بارعة، تستطيع في كلمات قليلة أن ترسم شخصية فنية متكاملة وتتركها لتعيش وتشق طريقها وسط عشرات الشخصيات التي صنعتها، كما أنها بارعة في الوصف؛ إذ تنقلنا كلماتها مباشرة إلى نفس الجو الذي تريد وإلى المكان الذي تشير إليه ... وهكذا)، فضلًا عن أنها تعي ضرورة تحرير المرأة، (وقد عملت في مجال حقوق المرأة لأكثر من 30 سنة). وقد كتبت حتى الآن 11 رواية؛ كان أولها «لم نعد جواري لكم» (1974م) التي أحدثت صدًى كبيرًا بسبب دفاعها عن حرية المرأة، غير أن «سحر خليفة» لم تحظ بالاعتراف الأدبي إلا بعد صدور روايتها الثانية «الصبار» (1976م). ثم أصدرت: «عباد الشمس» (1980م)، ثم «مذكرات امرأة غير واقعية» (1986م)، ثم «باب الساحة» (1990م)، ثم «الميراث» (2002م)، ثم «صورة وأيقونة وعهد قديم» (2002م)، ثم «ربيع حار» (2004م)، ثم «أصلٌ وفصل» (2009م)، ثم «حبي الأول» (2010م)، ثم «أرضٌ وسماء» (2013م). وقد ترجمت معظم رواياتها إلى العبرية والفرنسية والألمانية والهولندية والإنجليزية والإيطالية والإسبانية والماليزية واليونانية والنرويجية والروسية. ونالت العديد من الجوائز العربية والعالمية أهمها: جائزة ألبرتو مورافيا للأدب المترجم للإيطالية، جائزة سيرفانتس للأدب المترجم للإسبانية، جائزة نجيب محفوظ عن روايتها صورة وأيقونة وعهد قديم، وجائزة سيمون دي بوفوار التي رفضتها لأسباب وطنية عام 2009م.

نابلس القديمة، وحصار الرئيس «عرفات» في «رام الله»، وبناء الجدار العازل.

والرواية - التي صدرت عام 2004م - تسجل لنا فظائع أعمال جند الاحتلال ضدّ أبناء الشعب الفلسطيني بنقل مشاهد متفرقة من أعمال الجند على الحواجز والطرقات والمواقع المختلفة؛ وخاصة ما فعلوه في «نابلس» و«رام الله»، واستطاعت أن تبرز مساوئ التعنت الصهيوني رغم سلمية الفلسطينين، كما أنها تسلط الضوء على الخلفية التي تنطلق منها العمليات الإستشهادية، وتجيب على الأسئلة المطروحة في الساحة الدولية حول المقاومة والاستشهاد؛ أو ما يسميه الغرب بالإرهاب. كما أنّها قد تناولت الهمّ السياسي الذي جمع بين كافة الأطياف الاجتماعية، التي يفرقها دائمًا التعصب الحزبي (فالنظرة الدونية للآخر تلعب دورها المقيت في إهدار الكثير من الجهد والوقت والكفاءات الفلسطينية)، وأيضًا أشارت إلى بعض التغيّرات التي طرأت على تفكير وتوجّه وسلوك الإنسان الفلسطيني نحو الآخر الاسرائيلي بعد «اتفاقيّات أوسلو» (تلك التغيّرات التي تدلّ على إمكانية القبول والتعايش المشترك). لكنّ الكاتبة في نهاية الرواية تصل إلى نتيجة عكسيّة تُثبّت رؤيتها السوداوية لكل ما يجري على الأرض الفلسطينية وهي: أن الإسرائيلي هو الذي يرفض السلام ويصرّ على استمراريّة الاحتلال والقهر ممّا يحول دون أيّ إمكانية للتعايش المشترك بين الشعبيْن. فضلاً عن أنها قد تناولت مجموعة من القيم الاجتماعية كالصبر وتحمّل المسؤولية والتعاون والتضحية، وتعرّضت لبعض الأمراض الاجتماعية كالنفاق والوصولية، كما أنها قد طابقت بين معاناة المرأة الفلسطينية ومعاناة الوطن المحتل([48]).

([48]) لا تستطع «سحر خليفة» أن تفصلَ بين معاناة المرأة ومعاناة كل الوطن المحتَلّ؛ ولا يوجد فرق كبير في رأيها بين الاحتلال الذكوري للمرأة والاحتلال الاسرائيلي للوطن، فلا تحرّر للوطن قبل أن يتحرر إنسان هذا الوطن، بشرط أن تكون الحرية للجميع المرأة والرجل. وهذه الثنائية: الرجل والمرأة، الاحتلال والمقاومة كانت محور كل

ومن هنا جاءت هذه الرواية لترصد لنا صورة للتحولات الاجتماعية التي نشأت بعد «اتفاقيات أوسلو» و«انتفاضة الأقصى» في الواقع الفلسطيني في الأراضي المحتلة وانعكاساتهما علي قيم المجتمع ومنظوماته، خصوصًا المرأة. وذلك من خلال شخصيات تجسِّد الواقع الفلسطيني بضعفه وقوّته ونضاله العظيم من أجل الحرية والخلاص وكرامة الإنسان.

ولعلّ الوصف الأدقّ لرواية «ربيع حار» يكمن في اعتبارها نصًّا أدبيًّا مزج التقارير الصحفية([49]) بشهادات واقعية عن الأحلام المنكسرة للشباب، وعذاب جيل الآباء، وحقّ المقاومة، ونمط المواجهة اليومية، وآلام وآمال الذات الفردية - خصوصًا مسألة الحبّ والزواج بالنسبة للمرأة - في فلسطين.

ذلك أن هناك منحيَيْن اثنيْن في الرواية: الأول يتّخذ من الواقعية والالتزام ذريعة لتحويل العمل الأدبي إلى تأريخ تفصيلي للأحداث، أو إلى تقرير سياسي يعمل على تسجيل الوقائع ونقلها إلى القارئ نقلًا شبه حرفي؛ بحيث تبدو الرواية رازحةً تحت وطأة الأرشفة والتسجيل ونقل الحدث السياسي والأمني بعقلية من يريد للرواية أن تكون تأريخًا مفصلًا، في حين يتخذ الثاني من الواقع منطلقًا لاختراقه والنفاذ إلى الأسئلة الوجودية الصعبة التي تطل برأسها من وراء الأحداث. وفي ضوء هذا المنظور تقع هذه الرواية في مكان وسط بين الخياريْن.

إبداعاتها؛ حيث كانت في كل رواية من رواياتها تقوم بتسجيل واقع فترة من حياة الشعب الفلسطيني تحت نير الاحتلال الاسرائيلي. (انظر: محمد الباردي، **في نظرية الرواية**، مطبعة سراس: تونس، 1996م، ص: 108.)

([49]) إن الرواية العربية هي الابن الشرعي للرواية الأوربية والثقافة الغربية عمومًا، وارتباط نشأة الرواية بنمو الصحافة العربية لا يتضح فقط في مستوى علاقة كتابها بالمؤسسة الإعلامية، بل أيضًا في غايتها وهدفها، فقد كان مفهوم الإصلاح غاية أساسية من كتابة القصة والرواية شأنها في ذلك شأن الكتابة الصحفية، وهذا يعني في نهاية الأمر أن الرواية أخذت عن الصحافة ضربًا من أسلوبها وبعضًا من هدفها وغايتها. (انظر: كوثر عبد السلام البحيري، **أثر الأدب الفرنسي على القصة العربية**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985م، ص: 280.)

ملخص الرواية:

الرواية تتكون من 67 لوحة متشابكة ومتنامية خطيًّا إلى الأمام، تنقل تفاصيل حياة الناس من خلال تتبّع واقع ثلاث عائلات فلسطينية عاديّة تعيش في قرية «عين المرجان» في «الضفة الغربية»، وتعاني ما يُعانيه كل الناس من الاحتلال الاسرائيلي للبلاد؛ من مصادرة أراض وبناء مستوطنات وتحرّشات وقحة. والعائلات الثلاثة هي:

أولًا: - عائلة «فضل القسّام» الرجل المناضل الذي وُلد في «عين المرجان»، وهو ابن تاجر سجاد من «حيفا» ترك بلده بعد سقوط البلاد عام 1948م، وقد شقي «فضل» في طفولته من حياة المخيّم وشظف العيش وشارك في نضالات الشعب الفلسطيني، وكان يعمل بائعًا متجولًا للصحف ثم أصبح صاحب مكتبة وعمل مراسلًا لجريدة «القدس» ينشر أخبار البلد ويعلق على الأحداث ويحظى باحترام الناس. أحبّ «فضل» «شهيرة» الفتاة اللعوب التي تغني وتضرب على العود، وتزوجها رغم معارضة والده، وأنجب منها ابنه «مجيد». وبعد موتها تزوّج من امرأة ثانية، وأنجب منها ابنه «أحمد».

ومن خلال مراقبتها للواقع وملامستها له تصف لنا الكاتبة ضيقها من الجوّ الشبابي العام واللامبالاة بالقضايا الكبيرة والهمّ الوطني، الذي ظهر بعد اتفاقيات أسلو؛ فتسقطه على ضيق الأب من سلوك ولديْه «مجيد» و«أحمد» البعيديْن عن الهمّ الوطني، المشغولَيْن بنفسيْهما.

فـ«مجيد» البكر يبحث عن مستقبله من خلال الموسيقى ويحلم أن يصبح مطربًا مشهوراً؛ فيشارك في تأسيس إحدى الفرق الفلسطينية، وكان همّه فقط في الحب واللهو والغناء والسهرات والحفلات، وكان مبذرًا وإذا لامه والدُه على مصروفه الكبير يغضب وهو يعلن حريته فيما يفعل وأنه يصرف كما يريد، هو يتحدّى والده في أكثر من موقف حتى أنه عمل في المستوطنة القريبة دون علم أبيه.

ولا يجد «فضل القسام» ما يواجه به ابنه غير الإنطواء على الذات واستحضار الماضي والحنين إليه وهو ويتألّم من جيل الأمل والمستقبل!؛ الجيل الذي لا يقرأ ولا يكتب؛ الجيل المائع الصائع الضائع الذي تربّى على الدّلع والشوكلاته.

ولكن «مجيد» يلتحق بصفوف المقاومة بعد وجوده صدفة في منزل «بدر الوشيمي» (الثري القوي المتهم بالعمالة لصالح المحتل والذي أعدمته المقاومة بسبب اتهامه بالعمالة لإسرائيل) الذي كان قد وعده بإرساله إلى إيطاليا للتخصص في الموسيقى. ويُتهم «مجيد» بقتل «الوشيمي»، ولكن يتم تهريبه ليستقر في مبنى المقاطعة. ويتعرف على «لورا» ابنة «بدر الوشيمي» التي تعمل مراسلة لإحدى الفضائيات، فتوفر له فرصة الحديث واللقاءات التليفزيونية؛ ليصبح بعد ذلك نجمًا وينخرط في السلطة ولا يراه الناس إلا على الفضائيات.

ومن هنا فإن «مجيد فضل القسّام» يعتبر في هذه الرواية نموذجًا لفئة من رجال السلطة المتسلقين؛ يقول «مجيد»: "الاقتراب من القائد يعني سُلطة. يعني مَنصب، يعني رتبة، يعني راتب، يعني وكيل وزارة، ثم وزارة. وكذلك السّباق على الأخبار والتلفزيون، فهذا يقول وذاك يُحلّل والآخر ينتقد ويترقّع مع أنّ قائمة المنتفعين تبدأ باسمه. وبدأت ألفاظ تتحفنا بما هبّ ودبّ من مصطلحات، وبدأت كلمات ديمقراطية وإصلاح الفساد وإعادة هيكلة الحكومة ونوّاب الشعب تغزو القنوات والجرائد."([50])

وهو يعترف مع نفسه أنه يخدع الآخرين وحتى نفسه؛ "بدل الكاكي لبست البدلة، وبدل السلاح حملت القلم ألوّح به وأنا أحكي وأشرح وأقول

([50]) سحر خليفة، **ربيع حار: رحلة الصبر والصبار**، رام الله: مركز أوغاريت الثقافي للنشر والترجمة، ط1, 2004م، ص: 170.

بملء الفم ديمقراطيّة وهموم الشعب وإعادة هيكلة الحكومة حتى صدّقتُ ما أُدلي به من تصريحات."([51])

وهكذا تكون الكاتبة قد عرضت المقدمات المنطقية التي جعلت من مناضل مطارد من الاحتلال، وناجٍ من الموت المحتم بأعجوبة كـ«مجيد» يتحوّل في مقر «ياسر عرفات» إلى رجل بيروقراطي مهووس بالكاميرات والشهرة والإعلام، ويكون التغير الذي طرأ على شخصيته بهدف انتقاد فئة المتسلقين من رجالات السلطة الفلسطينية.

أما «أحمد» (الولد الذي لا يحسن لفظ الحروف، ويُتأتىء في كلامه بسبب خجله الفطري ونعومته الفائقة) فيعيش وحيدًا بعيدًا عن الآخرين، وهو يحب القراءة ولا يحب اللهو واللعب مع الأولاد، "ولا يتظاهر ولا يرشق الحجارة ولا ينطّ ولا يركض، فقط يهرب. في كل مرّة يشتغل الضرب ويخرج الأولاد إلى الشارع في مظاهرة تبدأ بهتاف ثم الفوضى ورشق الحجارة وغاز الدموع، كان يتسلّل من غير ضجيج ويختبىء بعيدًا في مكان ما: في المراحيض، تحت الدرج، خلف الحاوية، أو مقبرة عين المرجان. وهناك يظل دون نفَس حتى تهدأ معركة اليوم الصغيرة فيرجع إلى البيت دون أن يلاحظه أحد."([52])

و«أحمد» يهوى التصوير، ويمتلك موهبة الرسم، ولكنه يرسم ما يراه أمامه كما يراه هو وليس كما هو في الواقع. وهو يحب قطته التي تقوده إلى حدود مستوطنة «كريات شيبع» الإسرائيلية (المحاذية لبلدته والمقتطعة أصلاً من أراضي الفلسطينيين وأملاكهم) فيرى من وراء الأسلاك «ميرا» الفتاة اليهودية الشقراء الجميلة؛ فتجذبه «ميرا» ابنة المستوطنة إليها ويتعلق بها ويترصّد حركاتها ويتابعها من خلال عدسة آلة التصوير، وحين يعبر الأسلاك الشائكة لاستعادة قطته يُفاجأ بعواء كلاب العدو وانطلاق صفارات الإنذار والقبض عليه وحبسه؛ ومن ثم

([51]) المصدر السابق، ص: 170.

([52]) المصدر السابق، ص: 13.

يترك الدراسة، ولكن تعلّمه وتصقله أيام السجن القاسية. وبعد احتياح «نابلس» ومشاهدته المجازر الدموية التي ارتكبها الاحتلال الإسرائيلي بحق أبناء شعبه ينخرط في العمل الشعبي التطوعي لإسعاف الجرحى والمصابين، ليرى بأم عينيه مقتل الفتاة البريطانية «راشيل» من دون ذنب اقترفته سوى انخراطها في تظاهرة سلمية ضد جدار الفصل. ومن ثم ينخرط «أحمد» في المقاومة، ويقرّر القيام بعملية استشهادية أمام ناظري «ميرا» التي لا ينسى ما سببته له من ذلّ وظلم وسجن.

وهكذا جعلت الكاتبة من «أحمد» (ذلك الفتى الغض الحالم ذي البنية الجسدية الضعيفة الذي كان يؤثر السلامة على النضال المشروع والعادل) مساقًا إلى قدره الحتمي؛ حيث لم تترك أمامه قوى الاحتلال المتغطرسة سوى أن يجد نفسه ومن دون قرار مسبق متحولًا إلى قنبلة موقوتة تنفجر في وجوه المحتلين. وهذا يعني: أن الكاتبة ترى استحالة اللقاء بين «ميرا» و«أحمد»؛ فلا حياة لحب غير طبيعي بين شعب مضطهد ومحتل وطنه، وأنه لابد من انهيار ذلك الوهم الخادع الذي سيطر على كثير من العقول خاصة جيل الشباب الذين انخدعوا بالتحوّلات الاقتصادية السريعة وتوفير فرص العمل وانفتاح الآفاق والحواجز وارتفاع مستوى المعيشة. فكما «مجيد» و«أحمد»، دفع هذا العدوان الشّرس كلّ الشباب في اتجاه العنف والكراهية والرغبة في الانتقام والقتل والتدمير. "شباب ملّوا القذارةَ والاحتلال وقيود السجن فباتوا قذائف. بات الشباب بلا أمل فأضحوا قنابل مفخخة تمشي وتنتقل على قدمّين وتضرب في العمق وتتحدّى حالة الطوارىء والاحتياطات والحواجز وحصارًا خانقًا دام سنة، ثم سنتين، ثمّ سنوات. أهناك أمل؟ أهناك مَفرّ؟."([53])

وعليه فإن الكاتبة (وكما يبدو من منطلق قناعاتها) لم تبغ تقديم صورة لواقع ورديّ جميل يعيش فيه أبناء الشعبيْن بتوافق وقبول أو حتى

([53]) سحر خليفة، **ربيع حار: رحلة الصبر والصبار**، ص: 90.

بعلاقات انسانيّة وعاطفيّة، لأنّ مثل هذه الصورة تكون تزييفًا لواقع لا يمكن أن يكون. ولهذا انتهت رحلة الربيع الوردية سريعًا باعتقال «أحمد» ومطاردة «مجيد» وتفجّر العنف في كل الأراضي المحتلة.

ولكننا نُفاجأ بالأب «فضل القسّام» وهو يُصعق عندما يُفاجأ بانضمام ابنيه لرجال المقاومة؛ لأنه تخيّلهما محمولَيْن على الأكتاف ملفوفَيْن بالأعلام والأزهار مثل الباقين؛ مثل الشهداء والضحايا بكل الأعمار، وتساءل بألم: "لماذا الموت؟ أهناك سبيل غير الموت والتشرّد والهرب من الجيش والشرطة؟ ماذا يفعل هؤلاء الشباب؟ ما نفع الموت والاستشهاد؟ موت عبثي بلا مقابل، وبلا مَردود."([54])

وهكذا تقف «سحر» على آثار العدوان الإسرائيلي على حياة الانسان الفلسطيني في الأراضي المحتلة وتصرفاته وفكره وقناعاته. فنرى كيف أنهى العدوان كل حلم جميل وأمل راود أي إنسان؛ فأصبح كل أب وكل أم بل وكل إنسان يخاف على حياته وبيته وأرضه وأولاده وإخوته، ولا يأمن البقاء للغد، ولا الحياة الكريمة التي تُبقي له ما يتعلّق من أجله ويسعى لتحقيقه. فحتى أمثال «أحمد» (الفنان الحالم بالرسومات والتصوير والحب)، و«مجيد» (المطرب عاشق اللهو والحفلات والحالم بمستقبل فني كبير) وجدا نفسيْهما بين رجال المقاومة يقاتلان ضد جند الاحتلال، بل وحتى أمثال «فضل القسّام» (ممثل جيل الآباء الذي وعى النكبة وعانى الغربة وقاسى التشريد والظلم والجوع ورفض التنازلات، وأصر على مواقفه الرافضة للتعامل مع المستوطن الذي يحتل أرضه ووطنه؛ لأنه يرى في ذلك استهانة بالوطن والناس والذات، ولا يقبل أيضًا التعامل مع الذين يتهمهم بالخيانة والعمالة حتى ولو كان هؤلاء طوق النجاة والنجاح له ولكل أهل بيته) وجد نفسه خائفًا على أولاده من الموت، متمنيًا أن يكون هناك سبيلًا للحرية غير الموت والتشرّد والهرب من الجيش الإسرائيلي.

([54]) سحر خليفة، **ربيع حار: رحلة الصبر والصبار**، (ص ص: 86-87).

وهكذا صوّرت لنا الكاتبة من خلال شخصيات عائلة «فضل القسّام» التحوّلات التي طرأت على الكثير من أبناء الشعب الفلسطيني على أثر اتفاقيّة أوسلو والانفراج الاقتصادي الذي عرفته الأراضي المحتلة بعدها، والشعور بالأمن والطمأنينة، وانخداع الكثيرين بأن الحلم الذي طالما أملوا به بالاستقلال وإقامة الدولة الفلسطينية والحكم الديمقراطي الحر وتحقيق العدالة والمساواة وبناء المجتمع الأمثل قاب قوْسين وأدنى.

وبذلك تكون الكاتبة قد طرحت على بساط البحث ثلاث قضايا حسّاسة وقفت أمام المواطن الفلسطيني بعد أوسلو، وعليه مواجهتها والتعامل معها واتّخاذ القرار الحاسم الصحيح: قضية الجيل الذي وعى النكبة وعانى الغربة وقاسى التشريد والظلم والجوع، وهو يرفض التنازلات للاحتلال الإسرائيل ووطنه، ويرى في ذلك استهانة بالوطن والناس والذات، ولا يقبل أيضًا التعامل مع الذين يتهمهم بالخيانة والعمالة. وقضيتيْ جيل الأبناء بشقّيه؛ الشقّ الذي سيطر عليه الوهم الخادع بالتحوّلات الاقتصادية السريعة وتوفير فرص العمل وانفتاح الآفاق والحواجز وارتفاع مستوى المعيشة؛ فالتحق بالسلطة متسلّقًا في سبيل الحصول على أعلى المناصب، والشق الآخر الذي أمل في صورة وردية لواقع جميل يمكّن أبناء الشعبيْن من العيش بتوافق وقبول أو حتى بعلاقات انسانيّة وعاطفيّة.

ولكن الكاتبة رأت في النهاية أن كل ذلك قد انهار وصار وهمًا، وأنه بانهيار أوهام جيليْ الشباب والشيوخ قامت «انتفاضة الأقصى» فبدأ العنف يتجدّد، والمحتَل الظالم يقسو لا يترك وسيلة إلا ويستعملها لإذلال الناس وسحق رغبة المقاومة في كل واحد منهم.

ثانيا:- أسرة «أبو سعيد» الذي يقبع في سجون الاحتلال منذ ربع قرن، ليتعرض أبناؤه إلى النفي والاستشهاد، ولكن تظل زوجته «أم سعاد» (المرأة القوية، المشبعة بالتضحية وحدب الأمومة، الصامتة الواعية لكل ما يدور حولها، المجربة التي تُدير شؤون بيتها) بعد اعتقال زوجها تكابد لمواصلة الحياة وتنجح في تربية أولادها (على الرغم من

قسوته الشديدة في معاملتها قبل سجنه)، وتثبت مكانتها وسط أهل الحارة أثناء حصار جيش الاحتلال حتى يعترف بها الجميع مختارة للحارة.

وعن طريق «أم سعاد» تعرض الكاتبة مظهرًا من مظاهر التضامن الاجتماعي والسياسي أثناء «انتفاضة الأقصى» ظهر في تضافر جهود نساء الحي وشبابه في تلاحم وعزيمة، خاصة أثناء حصار المدينة من قبل جيش الاحتلال، إذ استطاعت «أم سعاد» أن تنظم بجهودها أعمال المطبخ وقامت بتأمين الطعام لأهل الحي والثوار؛ "قالت: يا حمادة تعال احمل. فحمل لها أكياس الأرز وقناني الزيت وعلب السمنة. وقالت له: ناد عيسى. فنادى عيسى ونادى خليل وروحي وحمزة وصفوا الشوالات في أرض الخان حيث المطبخ بين البايكة والحاكورة. جمعت نسوان كل الحارة ووزعت عليهن كل الأدوار؛ أربع للأرز، وأربع للعجين، أربع للطبخ وتقشير الفول والبطاطا وتقميع الفاصوليا والبامية. مطبخ عظيم، مطبخ ممتاز يطعم مئات المقاتلين وسكان الحوش. حوش العطعوط... بدك تأكل؟ تعال عندنا بدك تشرب؟ تعال عندنا... عندنا الخيرات مثل الجامع، مثل الملجأ، مثل المطعم يطعم ببلاش.. يلا تفضل!."([55])

وهكذا كانت هذه المرأة المكافحة تعطي أمثلة نضالية تمامًا مثل الأرض الصامدة المعطاءة([56]).

أمّا ابنها «سعيد» (الذي هاجر من الأراضي المحتلة، وأصبح محاميًّا يعيش في «عمّان». وهو يزور أهله على فترات متباعدة يستغلها لأخذ النقود من أمّه بحجج مختلفة) فهو يتغنى ببطولات شعبه بالكلام فقط والتنظير الذي لا يُطبق في الواقع.

([55]) سحر خليفة، **ربيع حار: رحلة الصبر والصبار**، (ص ص: 243–242).

([56]) "أقامت سحر خليفة مشروعها الروائي على ثنائية المرأة – الوطن، حيث لا سبيل إلى تحرير الوطن دون رجل حر يعترف بكيانية المرأة دون شروط؛ ولذلك بدت المرأة في أكثر من رواية مجازًا عن وطن يقاتل معوقًا؛ لأن قيوده الذاتية تمنع عنه الحركة الطليقة." (انظر: د.فيصل دراج في مقدمته لرواية: **صورة وأيقونة وعهد قديم**، بيروت: دار الآداب، 2012م، ص: 5.)

وفي مشهد معبّر نرى «سعيد» هذا وقد زار بيته في نابلس أيام الحصار والهجمة الاحتلالية على المدينة، وأخذ ينتقد ويهاجم الجميع ويصرّح بكل استعلاء بأنه لابد أن تستمر العمليات وأن لا يدع رجال المقاومة باصًا ولا طيّارة ولا قهوة صغيرة ولا مطعما إسرائيليًّا إلا ويستهدفوها. وهو يقول لأخته «سعاد» المعارضة له بعد نقاشات وكلام غير منطقي يتشدق به: "أنت لو بتشوفي إيش بيصير لمّا نسمع عن عمليّة!. الإذاعات والفضائيات والشارع العربي في أيّ مكان من مراكش حتى لبنان كلّه بوقّف يصفق ويقول: هيك الأبطال، هيك الشجعان، هيك النضال وهيك التحرير، واحنا طبعًا نرفع راسنا ونقول مظبوط إحنا قدّها، إحنا اللي ندافع عن العرب ونرفع راسهم."([57])

وهكذا نرى كيف أن الكاتبة عن طريق «سعيد» تنتقد ظاهرة هؤلاء الذين يعيشون بعيدًا عن الوطن وينعمون بطيّبات الحياة، ولا يتوّرعون عن انتقاد كل ما يفعله الأهل في الوطن، والتطاول على الغير من قيادات وناس عاديين.

لكن ابنتها «سعاد» التي تعيش معها داخل الوطن المحتل، (القوية الشجاعة المناضلة، الرومانسية التي تحب زميلها في الجامعة عضو الفرقة التي كانت تلهب مشاعر الطلبة بالأغاني الوطنية «مجيد القسام» وتضمر حبّه في قلبها، حتى تكتشف متأخرة حقيقته)، فقد فهمت ما يحدث في الواقع الفلسطيني، ولم تعد تلك الفتاة الرومانسية المتعلقة بـ«مجيد»، وإنما أصبحت الفتاة المناضلة الواعية المغامرة والمتحدية كل مَن يمس الوطن والوطنيين حتى ولو كان هذا المسيء أخاها.

ثالثًا:- وبالمقابل نتعرّف على أسرة «الوشيمي» التي برزت بعد «اتفقيات أوسلو» من خلال علاقات مشبوهة وفّرت لها نفوذًا وسلطة؛ حيث استطاع الجد (الخائن، المنحدر من أصل وضيع وتربية نَوَر ومَضارب بدو) أن يمتلك العقارات ويصبح غنيًّا وصاحب مركز

([57]) سحر خليفة، **ربيع حار: رحلة الصبر والصبار**، ص: 201.

اجتماعي مهم وسلطة. ولكن نهايته كانت القتل على يد المقاتلين من رجال المقاومة الفلسطينية.

وللأسف يحمل ابنه «بدر» اسمه ويحتل مكانه في الخيانة. و«بدر» هذا مثقف درس في «برنستون» يعرف لغات وثقافات وحضارات لا حصر لها، ويتقن العزف على البيانو ولعب التنس، وكان على علاقة جيّدة مع سلطات الاحتلال وكبار القوم، وهو متّهم بالعَمالة والتهريب وبيع الهويّات وتسويق بضائع ومخدّرات، هو وزوجته خرّيجة دراسات الشرق الأوسط من واشنطن والباحثة المتخصصة في اقتصاد الدول النامية ومصادر الثروات المائية وبترول أوبك.

أما ابنته «لورا» التي كانت تلبس المكشوف وتسوق الروفر والأودي وسط «رام الله»، فقد كانت معجبة بـ«مجيد القسام» بعدما عملت في الصحافة ومع محطات تلفزيونية أوروبية، وقد ساعدت «مجيد» على التقدم ليصبح نجماً تلفزيونياً من خلال المقابلات العديدة التي أجرتها معه.

وبرزت مع هذه الشخصيات (المتهمة بالخيانة والتعامل مع الجيش الإسرائيلي) شخصية «عيسى» العامل الفلسطيني في المستوطنة اليهودية الذي اتّهم بمعاونة جيش الاحتلال بعد اجتياح «نابلس» وقُتل. وتُركز الكاتبة على ظاهرة العُملاء والمتعاونين مع قوّات الاحتلال وتزايد أعدادهم باطّراد كبير؛ فنرى «أحمد» لم يعد يستطيع السكوت على ما يجري أمام تدمير جند الاحتلال للبلد؛ فيقول لـ«أم سعاد»: "أنا مش عارف إيش عملنا؟ ساعات بقول الموت رحمة. وساعات بقول إحنا كفرنا، ويمكن عشان إحنا منكذب ونضحك على حالنا وعلى الناس الله سخطنا. ويمكن عشان إحنا ساكتين على اللي خانونا وباعوا بلدنا الله ما تطلع بخلقتنا. عيسى باعنا يا أم سعاد. عيسى وأمثاله بالعشرات وبقولوا مئات. قالوا الشباب: عيسى وغيره كشفوا الألغام وكشفونا. ولمّا دخلوا

اليهود مشوا على الأرض فوق الأسلاك المقطوعة لأنّ عيسى، عيسى وغيره، كشفوا الأسلاك وكشفونا."([58])

وتوصلنا الكاتبة إلى النهاية التي تريدها لهذه الشخصيات، فلا مكان للخائن وللعميل بين أفراد شعبه وعلى تراب وطنه. ولهذا كانت نهاية كل من «عيسى» و«بدر الوشمي» الموت على يد المقاتلين من رجال المقاومة الفلسطينية.

والواقع أن الكاتبة لم تكن أقل حدّة وانتقادًا لفئة من رجالات السلطة وسلوك كل واحد منهم من انتقادها لسلوك ذلك «الوشيمي»؛ "كان لنا وشميّ واحد صرنا بأوشام. وأنظمة بعمائم ونياشين وحجّاج وأئمّة وتجارة بالملايين. ونحن الملايين، نحن الأيتام مثل الخراف بلا راع يا بلد الشوم!."([59])

وهكذا نرى أن أهم ما يميّز «سحر» عن غيرها من المبدعين الفلسطينيين أنها رفضت خيال الشعراء وحلمهم ونبوءاتهم الورديّة وتضخيمهم للذات الفلسطينية، كما رفضت منطق الكتّاب وعقلانيتهم وادعائهم بالمسؤولية الجماعية ورغبتهم في التستّر على الواقع للحفاظ على وحدة الشعب وتضامنه ورغبته في الكفاح والالتفاف حول المسؤولين في قيادة المسيرة؛ فرفعت صوتها معلنة: أنْ لا حماية للمفسدين منهم، ولا تستّر على الفسادن ولا قبول للمتعاملين والخائنين، وكفى للشعارات والخداع والقبول بالواقع الاجتماعي المتَخلف باسم العادات والتقاليد والدين.

وإضافة إلى هذه الشخصيات الفاعلة في الرواية نتعرّف على ابن غزة الجندي الذي لاقى حتفه بشظية قنبلة، و«أبو رامي» القائد المخلص، وفتاة السلام الانجليزية «راشيل» التي جرفتها جرّافة الاحتلال وهي تتظاهر ضد جدار الفصل العنصري وتجريف الأراضي العربية.

([58]) سحر خليفة، **ربيع حار: رحلة الصبر والصبار**، ص: 162.

([59]) المصدر السابق، ص: 83.

وأيضًا تعرّفنا على جنود الاحتلال بوجههم البشع الكريه، الذين كانت ردّة فعلهم على كل عملية مقاومة عنيفة؛ بالمجنزرات والدبابات والطائرات فهدّموا البيوت والجسور وخربوا الطرقات حتى توقّفت الأعمال والحركة والحياة. وازداد الحصار والظلم والتعدّي فأخذ الجند يطلقون كلامهم البذيء وشتائمهم وكراهيتهم الدفينة، حتى ضدّ كل مَن يتعاطف مع أبناء الشعب الفلسطيني حتى ولو كانوا من اليهود الإسرائيليين أو من المستوطنين أنفسهم الذين يقيمون على الأرض الفلسطينية. وتجلّى هذا الحقد وهذه الكراهية وافتقاد كل المشاعر الإنسانية عند جندي الاحتلال في تصرّف سائق الجرّافة -في مشهد حقيقي حدث في الواقع - الذي هدم بيت «فضل القسام» واقتحم البيت بالجرافة وهدد حياة «القسّام»، ومن ثم مزق جسد فتاة السلام الانجليزية التي جاءت لتتضامن مع أبناء الشعب الفلسطيني ضدّ بناء جدار الفصل، ورغبت في حماية «فضل القسام» بجسدها بتصدّيها لجرافة الاحتلال، كذلك في عدم استجابته لصراخ واستجداء الرجال والنساء.

وأيضًا وجهت «سحر خليفة» بكل الغضب سهامَها واتّهاماتها ضدّ الاحتلال وجند الاحتلال وأبرزت الأعمال الهمجيّة التي قاموا بها من تنكيل وتدمير وقتل للانسان والأرض، وعمليات المداهمات والاعتقالات وإطلاق النار والقتل والطرد والتشريد والتجويع وقطع المياه والكهرباء عن البيوت وسدّ كل المداخل. وإن لم يخل الأمر من مشاعر إنسانية قد توجد عند بعضم؛ من خلال شخصية جندي الاحتلال الشاب الذي تعاطف مع «سعاد» وأمها و«أحمد»، فلم يستطع إهانتهم عندما أوقفتهم الدورية الاسرائيلية، وتردّد في كلامه وتعامله وكان ينظر بخجل نحوهم وكأنه يطلب الصفح. ومثله عشرات ومئات الشباب اليهود الاسرائيليين حتى من سكان المستوطنات الذين جاءوا ليتظاهروا ضدّ حاجز الفصل والاحتلال والظلم. وكانت «ميرا» الفتاة اليهودية النموذج الممتاز لامكانية التعايش بين الشعبين وإقامة عَلاقات طبيعية وحتى علاقات حُبّ؛ فعلاقتها

بـ«أحمد» تعدّت كلّ الحواجز والموانع وظل الواحد يحتفظ للثاني بمكانة خاصة وبحبّ دفين لا ينتهي.

وهكذا كانت الكاتبة واعية لوجود مَن يتحلون بالمشاعر الانسانية وبالمبادىء الليبرالية الحرّة البعيدة عن التعصّب القومي بين أبناء الشعب اليهودي، أو كأنها قد أرادت أن تقول بأن هذه العلاقات إذا تدمّرت الآن فلأن الوقت لم يحن بعد والظروف لا تزال غير ملائمة، ولكن المستقبل كفيل بإحياء مثلها وتقويتها ورعايتها، فالأمل موجود والعلاقات قد تتجدد ولقاء الشعبين قد يحدث ولا فقدانَ للأمل.

وتنتهي الرواية بذلك المشهد القاسي الذي يوقفنا على بشاعة الاحتلال ومدى معاناة الشعب، واستحالة تحقيق الأمل ولو حتى على المدى البعيد: "أمسك الجندي بوالده من عنقه وجرّه كالكبش وهو يقاوم. رآه يرفسه بالبسطار. ورأى والده يتقيّأ. فأسرع يركض نحو الحادث لكن الجنود مثل الحاجز. ورأى الفتاة ابنة تاتشر تركض إلى الدار لتحمي أباه، فتحت ذراعيها مثل الصليب وأخذت تصرخ Stop.Stop.. لكنّ الجرّافة تتقدّم Stop.Stop.. مثل الزلزال تدكّ الأرض فتفلقها وتمشي كالرّخ وتترنّح مثل الغيلان. مشت لتتلقّاها مثل الصليب، ذراعاها مفتوحتان والشعر الأشقر يتطاير من حمّ الوهج والجرّافة تقترب ببطء وتَرَنُّح وذلك السائق في أعلى الرأس، رأس زجاجي يلمع من وهج الشمس، وذاك السائق يلمع أيضًا، يلبس نظارة زجاجيّة مثل الضفدع وغطّاس البحر، ذلك السائق لا يتزحزح، لا يتحرّك، لا يُبدي حركة أو نأمة توحي بالفَهم. قطعة معدن، رجل آليّ، إنسان حديديّ، والنظارات مثل الضفدع. صاحوا: وقّف! ولم يتوقّف. رشقوا حجارة، ولم يتوقّف لطمت فلاحة وصاح الشباب: الله أكبر، (...) حملوا الفتاة ووضعوها خلف ظهره. كانت ميرا تبكي وتنوح وأبوه يصيح: أوعى يا ولدي. ما زال يصيح: أوعى يا ولدي! بعد كل الضرب والإهانات والدار تنسحق كقشر البيض وفتوت العيد، أوعى يا ولدي، وميرا تصيح: Go.on. Hurry up هنا فيه عسكر، فيه دبّابة، وأبي يبكي مثل الأطفال ويقول أوعى، وأم سعاد قالت أوعى، وأم

الغزاوي قالت له أوعى يا ولدي ولكن الحاضر فاجأها بضربة صاروخ. ورأى السائق في الجرافة يُحدّق من خلف النظارة مثل الضفدع، انسان الغاب، مثل الآلة، لا يتحرّك ولا يُبدي فَهمًا أو عطفًا، فقط يمشي، يقترب بآلته الضخمة، فصاح الشباب: إرجع رفيرس، إرجع، إرجع، إرجع. نظر إلى جانبه في المرآة ورأى العسكر، خمسة، سبعة، عشرة وأكثر.. صاحت ميرا: إرجع رفيرس. إرجع، إرجع. والجرافة تقترب منه. رجع إلى الخلف ثمّ استدار فرأى العسكر في مواجهته، ورأوه يقترب من الحاجز. صليّة رشاش على الأمبولانس فانكسر الزجاج وتطاير، إدعَس، إدْعَسْ، صاح الشباب، إدْعس، إدعسْ. داس البنزين وهو يتمتم مثل المجنون: يا أولاد الكلب! كان الغضب قد نزع الخوفَ والدنيا تموج خلفَ دموعه. لم يرَ إلاّ تلويح أبيه وميرا تصرخ: Hurry up, Hurry up. صليّة رشّاش ثانية فطار صوابه. صور الأحداث مثل السينما. شاشة سريعة، فيلم معطوب، وهو يصَوّر من غير صوَر، داخل عقله، إنْ بقي عقل، واندفع بكامل أجنحته مثل الصاروخ نحو العسكر، خمسة، سبعة، عشرة وأكثر، لم يُميّز، اختلّ العقل، ثم تأرجح، والروح تطير كطيّارة مثل الأوزون. فصاح الوالد: ابني استشهد!. في اليوم التالي سمعنا الخبر. قالوا: إرهاب". ([60])

ويوجد في الرواية مشاهد مأساوية كثيرة كانت تنعطف بالسرد فجأة نحو الأرشفة والتأريخ وتسجيل الوقائع بحيث تفقد الشخصيات ملامحها الفارقة وعوالمها الداخلية لتسقط في التأليف والنمذجة والتصميم المدروس؛ وكأن الكاتبة كانت تفقد زمام شخصياتها على حين غرة بتأثير من سطوة الأحداث وهولها، وبتأثير من التحولات السريعة التي طرأت على الحياة الفلسطينية. أو كأن هناك رغبة من المؤلفة بالإحاطة بكل ما يحدث بدءًا من حصار «نابلس» واقتحامها، وما رافق ذلك الحصار من تدمير للتاريخ ورموزه العمرانية التراثية، ومرورًا بحصار مقر «ياسر

([60]) سحر خليفة، **ربيع حار: رحلة الصبر والصبار**، (ص ص: 218–219).

عرفات» في «رام الله»، ووصولًا إلى بناء الجدار العازل الذي حول مدن الضفة وقراها إلى مربعات نائية ومعزولة ومطوقة من كل صوب؛ لتستحضر وتنقل ملحمة شعب في مواجهته لأشرس وأعنف وأقسى قوة عتيّة شرسة. أو كأن «سحر خليفة» أرادت أن توصل روايتها إلى ذروتها الأخيرة بالتزامن مع المأزق التراجيدي الذي لم يترك أمام الفلسطينيين ما يفعلونه سوى تفجير أنفسهم في وجه العدو الغاصب.

نحن إذن أمام عمل فني وليد تجربة حياتية متوهجة عن «انتفاضة الأقصى», عبرت عنها أديبة في رواية, تكاد أن تكون قد فقدت هوية التصنيف؛ فنفهم إلى أي حد يمكن أن تتفاعل التجربة المتوهجة مع السارد لتنتج عملًا أدبيًّا. فاعتماد الكاتبة على ذاكرتها أو على الوقائع الحية أكثر من خيالها؛ واعتمادها على التقارير الصحفية حتى تمددت على الرواية في معظمها؛ هذه الأمور جميعًا تميز الكاتبة صاحبة الرسالة، التي تستخدم أدبها في التعبير عن قضية إنسانية لا للتعبير عن مواقف طريفة أو حبكة جيدة.

خاتمة:

تُعتبر «انتفاضة الأقصى» حالة جماعية؛ تعبيرًا عن الرفض ومحفزة عليه؛ عاشها ويعيشها كل أفراد الشعب الفلسطيني؛ فبدت جليّة في الإبداعات القصصية والروائية، وأعطت الكثير من الصور والتجارب التي ربما كان خيال القاص أو الروائي قادرًا على استحضار أو تخيل بعضها.

وتعد رواية «ربيع حار» من تلك الأعمال التي رصدت الواقع النضالي الفلسطيني خلال «انتفاضة الأقصى»، وغاصت في عمق المجتمع الفلسطيني، وفي دواخل الذات الانسانية، ورسمت المشاهد المختلفة التي بمجموعها تعطي الصورة الكاملة للوضع الفلسطيني تحت نير الاحتلال الاسرائيلي، خلال فترة ساخنة من رحلة صراع الفلسطيني على أرضه، فكانت وكأنها تسجل لذاكرة التاريخ؛ حيث حرصت الكاتبة

على البعد الإنساني من عادات وتقاليد وملامح لشخوص وأماكن وغيرها، وكانت ذكيّة ومبادرة وجريئة في تلمّس بوادر التغيّرات والتوجّهات وحتى القناعات عند الكثير من شباب الجيل الجديد من الشعب الفلسطيني بعد اتفاق أوسلو؛ فرصدت هذا التغيّر في قناعات الكثير خاصة من الشباب الذين أملوا في مستقبل جميل بعيدًا عن العداء والقتال وشظف العيش، وكيف أن هذا التغيّر بدا في اهتمامات الشباب بحياتهم الخاصة وملذاتهم وضمان مستقبلهم؛ فلم تعد قضايا الوطن الكبيرة هي محور الأحاديث وإنما الهموم الذاتية الصغيرة (المأكل والمشرب والملبس واللهو والأصحاب والمال)، ورصدته في العلاقات الاجتماعية والعاطفية التي لم تعد فيها المواقف الفكرية والسلوكيات الاجتماعيّة هي التي تُحدّد تلك العلاقات، وكشفت حقائق فئة من الناس الكبار المتسربلين ثوب الطّهارة والنّبل والوطنيّة والتضحية والشرف، فعَرّتهم على حقيقتهم وكشفت أسرارَهم؛ حتى ولو كانت الصورة حادّة وجارحة ومرفوضة عند البعض لكشفها عن هذا الوجع؛ فكانت واضحة وحادّة وصريحة وصارمة في تحديد مواقفها من قضايا عديدة، وسردت الأحداث حريصة على تأكيد وجهة نظرها؛ لتكشف لنا الصورة التي قد نغفلها, أو قد تنسينا إياها الأيام؛ بأن الانتفاضة والكفاح المسلح هما الحل لكل تلك المآسي لم تستطع اتفاقات أوسلو أن تجد لها حلًّا؛ وبذلك كانت هذه الرواية راوية هذا الشعب ومُسجّلة ملحمته المجيدة خلال «انتفاضة الأقصى» في مصارعة الحياة، ومقاومة المحتل، وفضح الجزء غير المقبول من الواقع الفلسطيني.

وأخيرًا أود القول أنه نظرًا لأهمية الرواية في ظل المناخ العام المقاوم للاحتلال، وتصوير ما يحدث في الأرض المحتلة في الضفة والقطاع؛ فإني أرى شخصيًّا أن نص «انتفاضة الأقصى» لم يُكتب بعد، وقد يُكتب؛ لأنه - وإن كتب فيه بعض الكتاب - ما زال قابلًا لأن يُكتب بعمق وبتنوع وبغزارة؛ وذلك لعمق الحدث وغزارة إفرازاته.

والحمد لله الذي أسبغ علينا نعمة القول وأتمه.

قائمة بالمصادر والمراجع:

1. سحر خليفة، «ربيع حار: رحلة الصبر والصبار»، رام الله: مركز أوغاريت الثقافي للنشر والترجمة، ط1, 2004م.

2. عميره هاس، «إسرائيل تُصعّب على المتزوجات من فلسطينيين لمّ الشمل العائلي»، جريدة القدس العربي، صحيفة عربية يومية مستقلة: تصدر من لندن، وتطبع في الوقت نفسه في لندن ونيويورك وفرانكفورت، عدد 11سبتمبر 2017م.

3. د. فيصل دراج في مقدمته لرواية: «صورة وأيقونة وعهد قديم»، بيروت: دار الآداب، 2012م.

4. كوثر عبد السلام البحيري، «أثر الأدب الفرنسي على القصة العربية»، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985م.

5. محمد الباردي، «في نظرية الرواية»، مطبعة سراس: تونس، 1996م.

6. د. مصطفى عبد الغني، «الاتجاه القومي في الرواية»، عالم المعرفة، 1995م.

فلسطين ..!!

(محنة شعب .. وقضية وطن)

قراءة في ضوء بعض المحاور

د . عواطف يونس

مدير إدارة النشر بالهيئة العامة لتعليم الكبار

لم تحظ قضية باهتمام العالم خلال القرن العشرين ، مثلما حظيت قضية فلسطين ، (فعلى أرض فلسطين أقيمت (دولة إسرائيل) بقوة السلاح ، وطرد الشعب العربي ليحل محله قوم أتوا من جميع بلاد العالم في شكل مهاجرين أو غزاة ، والتقت مع إرادة الصهاينة في إقامة وطن يهودي ودولة أساسها التعصب ، التقت هذه الإرادة مع إرادة دول كبرى تحرص على استمرار نفوذها في المنطقة العربية ، وترغب في إيجاد ثغرة مسلحة داخل قلب الوطن العربي ، لحماية مصالحها الاقتصادية والسياسية والعسكرية " (1)

ويقول "هنري كتن " في كتابه (فلسطين في ضوء الحق والعدل) : " إن إسرائيل مخلوق غير شرعي ، وغير طبيعي ، فقد ترتب غلى خلق إسرائيل ـ وعلى اغتصابها أرضا تعود لشعب آخر ـ تشريد السكان الأصليين لفلسطين " (2) ، ومن ثم قاومت الشعوب العربية المخطط الصهيوني الاستعماري قدر ما أتيح لها من إمكانات خلال حروب 1948 ، 1956 ، 1967 ، 1973 ، وما بعدها ودافع الشعب الفلسطيني عن أرضه ووطنه ، واستطاعت الأمة العربية أن تستصدر من الأمم المتحدة ، ومن مجلس الأمن ومن المنظمات والهيئات والمؤسسات الدولية كثيرا من القرارات التي تدين إرهاب إسرائيل وسياساتها وبخاصة بالنسبة للاستيطان والاستيلاء على الأراضي بالقوة ، وتمثل فترة الأربعينيات من القرن الماضي وحتى قيام ثورة 1952 بداية المواجهة العسكرية العربية الإسرائيلية ، بعد إقامة الدولة اليهودية ، وفي هذه المرحلة حرصت مصر على بلورة موقف عربي جماعي في مواجهة هذا الاحتلال .

وقامت في ختام اجتماع اللجنة التحضيرية للمؤتمر العام المعني بتأسيس جامعة الدول العربية في أكتوبر 1944 بإصدار قرار تؤكد فيه ضرورة استقلال فلسطين ، وأيدتها في ذلك بقية الحكومات العربية ، وكان الرئيس السادات أول من اقترح فكرة إقامة حكومة فلسطين المؤقتة ردا على ادعاءات جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل آنذاك بعدم وجود

شعب فلسطين ، ومن هنا يمكن تناول المحور الأول لهذه الورقة البحثية على النحو الآتي :

- فلسطين بوابة مصر الشرقية (قضية أمن مصر القومي)

بين مصر وفلسطين تاريخ مشترك ، ويؤكد التاريخ مدى الارتباط القومي والأمني بين مصر والمشرق العربي وخاصة فلسطين ، وكان لمصر دور كبير في مواجهة خطر الحيثيين في مصر القديمة ، وكيف امتد الحكم المصري في بلاد الشام حماية للمنطقة كلها من هذا الخطر الداهم الذي مثله الحيثيون ، كما مثلت البوابة الشرقية لمصر مشكلة دائمة ، فعبر هذه البوابة جاء الخطر الفارسي متمثلا في جيوش قمبيز ، ثم في تاريخ العصور الوسطى وأثناء الحروب الصليبية عندما جاء الصليبيون إلى بيت المقدس في فلسطين ، وحاولوا غزو مصر أيضا ، ولكن " مصر القاهرة كم قهرت جبابرة ومنهم لويس التاسع ، وكيف اندحرت جيوشه في المنصورة ، وتم أسره وحجزه في دار ابن لقمان في المنصورة ، كما قامت قاهرة صلاح الدين بدحر القوى الصليبية في موقعة (حطين)، واستعادت بيت المقدس من جديد ، ثم عندما اجتاحت جيوش المغول المشرق العربي كله ، وسقطت بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية العباسية ، واستطاعت مصر بقيادة سيف الدين قطز دحر هؤلاء المغول على أرض فلسطين في موقعة (عين جالوت)، وأنقذت مصر العالم الإسلامي كله من بربرية المغول التي كادت تعصف بالحضارة الإسلامية " (3) ، وفي العصر الحديث يكمن الخطر أيضا في المشرق في فلسطين بوابة مصر الشرقية ، إذ قيام إسرائيل في فلسطين ، فأصبحت فلسطين بالنسبة لمصر قضية حيوية قضية أمن قومي .

- المحور الثاني : دور جامعة الدول العربية ومنظماتها في دعم فلسطين .

لعبت جامعة الدول العربية ومنظماتها المتخصصة دورا مهما في الدفاع عن شعب فلسطين ، وحقه في إقامة دولته العربية المستقلة ،
وكذلك كان للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم دور مهم في فضح الإجراءات التي تقوم بها إسرائيل لتغيير المناهج والكتب الدراسية في فلسطين المحتلة ، كما تولت المنظمة العربية عرض صور الاضطهاد الذي يلقاه المعلمون والطلبة الفلسطينيون من قبل السلطات الإسرائيلية على المحافل الدولية والمنظمات العالمية كاليونسكو، ومكتب التربية الدولي .
وأصدرت إدارات المنظمة العربية وأجهزتها ، وبخاصة معهد البحوث والدراسات العربية كثيرا من الكتب والأبحاث الخاصة بالقضية الفلسطينية من نواحيها السياسية والتاريخية والجغرافية والتعليمية والثقافية ، وطلبت منظمة التحرير الفلسطينية من مجلس جامعة الدول العربية مشروعا بإصدار كتب عن فلسطين والقضية الفلسطينية تدرس في المدارس العربية ، والتقى هذا الاقتراح مع توصية المؤتمر الثالث لوزراء التربية والتعليم العرب في الكويت 1968 ، والذي أكد أهمية تدريس القضية الفلسطينية في مختلف مراحل الدراسة في البلدان العربية.
وقد تبنت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم الموضوع ، فعقدت لجنة من الخبراء لدراسة مشاريع الكتب التي أعدتها منظمة التحرير الفلسطينية (القاهرة 1974) ، وعُرِض تقرير اللجنة على المؤتمر العام للمنظمة العربية فقرر الموافقة على توصية اللجنة بأن تكون الكتب المؤلفة كتبا عامة تصلح للاطلاع والقراءة الحرة في مراحل التعليم العام المختلفة ، كما تصلح أساسا للمناقشات والحوار والمناظرة بعيدا عن تقاليد الكتب المدرسية المقررة الموضوعة بغرض جمع المعلومات وأداء الامتحان فيها .
وقامت إدارة التربية بالمنظمة العربية بالتعاون مع دائرة التربية والتعليم العالي بمنظمة التحرير الفلسطينية بتكليف نخبة من خيرة المؤلفين

والكتاب بوضع كتاب (فلسطين .. أرضا وشعبا وقضية) ليكون مرجعا لطلاب المرحلة الثانوية في البلاد العربية .

واهتمت المؤتمرات الثقافية والندوات على مستوى الوزراء والمسؤولين والخبراء العرب بالحفاظ على الثقافة العربية الفلسطينية، والتراث الفلسطيني وتجديدهما ، وتعريف الأجيال الناشئة بهما ، وبمواجهة الغزو الثقافي الصهيوني ، واعتمد المؤتمر العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ومجلسها التنفيذي مخططا متعدد الجوانب متنوع الأساليب للوصول إلى الهدف وتنفيذ المخطط الذي يشمل إصدار دراسات علمية في إطار مشروع (سلسلة المدن الفلسطينية) بالتعاون مع دائرة الثقافة بمنظمة التحرير الفلسطينية ، بهدف إعطاء فكرة جامعة عن هذه المدن تتضمن واقعها الجغرافي ، وطورها العمراني عبر العصور ، وتاريخها وأنشطتها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، ورصد التاريخ النضالي لسكانها ليستفيد منها الطالب والعامل والمثقف والمختص على حد سواء ، ولتبقى وثيقة حية في ذاكرة الأمة العربية .

ويعتبر هذا المشروع عملا قوميا وثقافيا ، ويمثل جانبا من نشاط المنظمة في المجال الفلسطيني ، ومساهمة في بناء الثقافة الفلسطينية ، وتقوية عرى العلاقة بين الفلسطينيين ووطنهم ، وقد صدر عن هذه السلسلة (سلسلة المدن الفلسطينية) كتاب عن كل من : يافا ـ عكا ـ نابلس ـ الرملة ـ رام الله والبيرة ـ القدس (4)

- المحور الثالث : قضية اللاجئين وتعليم أبناء اللاجئين

بدأت أبشع مشكلة إنسانية في القرن العشرين ألا وهي مشكلة اللاجئين الفلسطينيين بتصريح بلفور ، واستغل اليهود هذا التصريح ، وساندهم في ذلك سلطة الانتداب البريطاني ، فأنشأ اليهود (الوكالة اليهودية) في الأراضي المقدسة ، وعملت هذه الوكالة على أمرين :

ـ الأول : الاستيلاء على الأراضي الفلسطينية بأي ثمن

ـ الثاني : تكثيف الهجرة اليهودية من أرجاء العالم إلى فلسطين .

وبذلك كان تشرشل وروزفلت كليهما يساندان الوطن القومي اليهودي في فلسطين ، مما يؤكد أن القوات البريطانية بمجرد دخولها فلسطين بادرت بتنفيذ وعد بلفور ، وفتحت أبواب فلسطين للهجرة ، مما يؤكد أن إجلاء عرب فلسطين عن أراضيهم كان مدبرا منذ بدايات الحركة الصهيونية ، وبدأت بريطانيا تخطو نحو تهويد فلسطين ، وخلال فترة الانتداب البريطاني انحازت السلطات البريطانية إلى جانب اليهود في سياسة انتزاع عرب فلسطين وتشريد أصحابها ، واقتلاعهم من أراضيها ، وضربت عرض الحائط باحترام القوانين ، وخاضت معارك ضارية وغير متكافئة مع أصحاب الأراضي العزل الذين كانوا يتشبثون بتراب وطنهم .

وأعربت الولايات المتحدة عن سعادتها لأن أبواب فلسطين أصبحت مفتوحة أمام المهاجرين اليهود ، ودعمت القوانين والقرارات التي تنشد فلسطين وطنا قوميا لليهود ، وذلك لأن اليهود كانوا يحتلون المراكز المهمة في ميادين الثقافة والاقتصاد ، وبالتالي أصبحت الولايات المتحدة مركزا لكثير من المنظمات الصهيونية العالمية التي أسهمت في الهجرات اليهودية إلى فلسطين ، وعندما أعلن قرار التقسيم في نوفمبر 1947 ، كانت موجات الإرهاب الصهيوني تقتحم على العرب بيوتهم ، وهكذا بدأ العرب ينزحون عن بيوتهم (5)

وخرج العرب الذين احتلت قراهم ومدنهم إلى البلاد المجاورة ، وفي خلال الأشهر الأربعة الأولى من عام 1948 ، خرجت القوافل الأولى من اللاجئين الفلسطينيين ، وكان نزوح أهل فلسطين الجماعي موضع لوم لهم ، لأنهم بذلك يسروا قيام الدولة اليهودية ، ولكنهم ربما كانوا معذورين لأنهم فروا من مواقع القتال والمذابح ، وكانت هجرتهم من أرض انتزعت ملكيتها منهم ، وتشهد على ذلك مذبحة دير ياسين وغيرها من المذابح التي قام بها عصابات الهجانة والأرغون ، واستخدم فيها اليهود مكبرات الصوت لتحذير العرب بالفرار إلى جانب أصوات الانفجارات والحرائق حتى كان العرب يتدافعون بالهروب من هذا الجحيم ، وتركوا أشياءهم

فارين بأنفسهم من تعذيب اليهود ، وادّعت إسرائيل أنها لم تطرد العرب / اللاجئين ، بل هم الذين تركوا فلسطين بإرادتهم ، وادّعت إسرائيل أيضا أن زعماء الفلسطينيين هم الذين حرّضوا اللاجئين على ترك البلد، حتى يخلوا الطريق للجيوش العربية القادمة لنصرتهم ، وإلقاء اليهود في البحر والقضاء عليهم ، (كذب ـ تلفيق ـ وتضييع للحقائق) ، وبذلك تتملص إسرائيل من إيجاد مشكلة اللاجئين ، وتنسبها للعرب أنفسهم ، حتى تصبح عودة اللاجئين مستحيلة ، وتعويضهم لا مبرر له ، وسنّت إسرائيل القوانين للاستيلاء غلى ممتلكات العرب وأراضيهم وأموالهم وبيوتهم ، حتى قال الزعيم الصهيوني فرانكويل مؤسس المنظمة الصهيونية للأراضي : " إن فلسطين وطن بلا شعب " (6)

تعليم أبناء اللاجئين

استمرت الدعاوى الصهيونية ضد برامج التعليم العربية ، فقد نشرت مجلة جويش أوبزرفر الصهيونية اللندنية أن الطلاب يتعلمون في كتب التاريخ روح العداء والكراهية لليهود ، وأن إسرائيل خلقت لتموت ، وأن على العرب أن يطردوا اليهود جميعهم من البلاد العربية ، وقالت المجلة : إن هذه الأفكار لا تدرس في كتب المدارس الحكومية العربية فقط ، بل في كتب مدارس وكالة هيئة الأمم لإغاثة اللاجئين الفلسطينيين ،

وقد ردت وكالة الغوث بأن ما ذكرته المجلة غير صحيح ، كما أنكرت الوكالة أن يكون كتاب بروتوكولات حكماء صهيون يدرس في المدارس العربية ، وأصبح من الضروري أن يوصي مؤتمر المشرفين على مراجعة الإجراءات التعسفية من تغيير المناهج الدراسية بهدف القضاء على الشخصية العربية وسلخ التلميذ العربي الفلسطيني عن تراثه القومي والحضاري والديني ، وإذابته في المجتمع الإسرائيلي ، كما طلب المؤتمر من منظمة اليونسكو ووكالة الغوث بضرورة الإبقاء على الكتب والمناهج التي كان معمولا بها قبل الاحتلال الصهيوني (7)

كما احتج المؤتمر على إيقاف الوكالة تدريس الكتب المدرسية في مدارسها ، واعتبر أن هذا مساس بالسيادة القومية للدول المضيفة للاجئين ،وأوصى المؤتمر بمتابعة العمل على التزام الوكالة بمناهجها في المدارس التي تتولى الوكالة إدارتها ، وعدم السماح لها بالخروج عن ذلك

- المحور الرابع : السياسة الإسرائيلية سياسة البطش

يقول ابن جوريون : " إنه يمكن وضع القانون جانبا والاعتراف بما يفعله اليهود " ، ويقول إسحاق شامير : " فلنلتفت إلى معتقداتنا نحن ، حيث لا الأخلاق ، ولا التقاليد اليهودية تنتبذان الإرهاب بوصفه وسيلة قتالية في مجرى الصراع ، ولذا فنحن بعيدون كل البعد عن تأنيب الضمير إزاء استخدامنا وسائل الإرهاب ، وفي التوراة جاء : (امحقوهم عن آخرهم .. أبيدوا حرثهم ونسلهم) إن إرهابنا يلعب دورا كبيرا في معركتنا هذه ، إنه صوت عال بحيث يسمعه العالم بأسره ، وكذلك أشقاؤنا التعساء خارج هذه البلاد " ، وهكذا فإن إسرائيل لا تؤمن إلا بسياسة اليد القوية في معاملتها للعرب ، ونأخذ على ذلك بعض الأمثلة منها مذبحة (دير ياسين) التي اقترفها الصهاينة وكانت مجزرة راح ضحيتها أكثر من 250 عربيا بين شيوخ وأطفال ونساء ذبحوا ، وبقرت بطون النساء الحبالى منهم بالسلاح الأبيض ، ثم أُلْقوا بهم في بئر ، وبعد ذلك شُحِنَ وطِيْفَ بمن بقى من سكان القرية في شوارع القدس في مظاهرة إرهابية تهدف لخلق جو من الإرهاب ، يبعث الفزع والزعر في أنفس السكان العرب لحملهم على الفرار والتشرد (8)

ومن أمثلة سياسة البطش التي استخدمتها إسرائيل مع الفلسطينيين ما حدث في مذبحة (كفر قاسم) التي وقعت في 29 / 10 / 1956 ، وكفر قاسم من قرى المثلث ، وعشية حرب سيناء ألقي على عاتق إحدى الكتائب أن تستعد للدفاع عن قسم من الحدود الإسرائيلية الأردنية ، وأكد قائد المنطقة لقادة الوحدات أن تأمين حملة سيناء يقتضي المحافظة المطلقة على الهدوء في المنطقة المجاورة للأردن .

وبناء على هذا فرض منع / حظر التجول في كفر قاسم ، وتم تبليغ هذا القرار لأهل القرية في الساعة الرابعة والنصف من بعد ظهر اليوم 29 / 10 / 1956 ، ليكون هذا الحظر ساري المفعول في الخامسة من نفس اليوم أي بعد نصف ساعة من اتخاذه ، وكان معظم أبناء قرية كفر قاسم موجودين في أماكن عملهم المختلفة والبعيدة ، وليس هناك وسيلة لإعلامهم بقرار حظر التجوال ، وعندما عاد هؤلاء العمال من عملهم في المساء ، تصدى لهم رجال حدود دولة إسرائيل ، وقتلوا منهم 47 عربيا من بينهم سبعة أولاد وبنات ، وتسع نساء بين شابات ومسنات إحداهن عمرها 66 سنة ، أمروهم بالوقوف ، وأنزلوا الراكب منهم عن ركوبته ، ثم أطلقوا النار عليهم .

وبسبب ما دار حول هذه الجريمة من نقاش في الصحف اضطرت الحكومة الإسرائيلية إلى تقديم المتهمين الثمانية إلى المحاكمة ، وصدر الحكم في هذه الحادثة بعد سنتين من المجزرة ، ولكن أي حكم ؟ لقد حكمت المحكمة عليهم بالسجن مددا تتراوح بين 17 سنة و8 سنوات لقتلهم عمدا 47 عربيا ، وللأسف بعد ذلك خفضت الأحكام ، وأطلق سراح آخر واحد من هؤلاء المجرمين 1960 ، أي بعد الحادث بأربع سنوات ، والأدهى من هذا أن بلدية الرملة أعلنت في سبتمبر (أيلول) 1960 أنها عيّنت (جبرائيل دهان) للعمل فيها مسئولا عن شئون العرب في المدينة ، وجبرائيل دهان هذا هو الذي قتل 43 من قرية كفرقاسم ، وكان المسئول الأول عن هذه المجزرة .

لكن العرب في فلسطين لم ينسوا هذه المجزرة الرهيبة، فهم كل سنة يخلدون ذكرى شهداء كفر قاسم ، وذلك بالاجتماعات والإضرابات والمظاهرات ، والإعلان عن الحداد في كثير من القرى العربية ، مما يؤدي إلى كثير من الاصطدامات مع الشرطة ، وتقديم المشتركين فيها إلى محاكمات عسكرية ، حتى اضطر الحكم العسكري أخيرا أن يغلق القرية في يوم الذكرى ، لمنع أبناء القرى من الدخول إليها ، وإحياء الذكرى التي تقام سنويا في مقبرة الشهداء .

وقد استثارت هذه المجزرة شعراء الأرض المحتلة وقرائحهم ، فنظموا القصائد منها قصيدة سالم جبران ، وقصيدتان لسميح القاسم ، وقصيدة محمود درويش بعنوان (أزهار الدم) ، وهي قصيدة طويلة ، فقد جعلها في ستة أناشيد وهي : مغني الدم ـ حوار تشرين ـ الموت مجانا ـ القتيل رقم 18 ـ القتيل رقم 48 ـ عيون الموتى على الأبواب .
وفيها يصف درويش القرية الحالمة الوادعة ، ثم كيف حصد شهداءها الطغاةُ ويصف ألمه ويدعو إلى الحقد على القتلة وإلى المقاومة يقول :

كفر قاسم
قرية تحلم بالقمح ، وأزهار البنفسج
وبأعراس الحمائم
.....
كفر قاسم
دعيني أستعر صوتي من جرح توهّجْ
وأعينيني على الحقد الذي يزرع في قلبي عوسج
إنني مندوب جرح لا يساوم
علمتني ضربة الجلاد أن أمشي على جرحي
وأمشي .. ثم أمشي .. وأقاوم
يا كفر قاسم
لا تدفني موتاك !! خليهم كأعمدة الضياء
خلي دمي المسفوك لافتة الطغاة إلى المساء
...
يا كفر قاسم
لن ننام ، وفيكِ مقبرة وليل
ووصية الدم لا تساوِم
ووصية الدم تستغيثُ بأن تقاوم
أن تقاوم ..(9)

المراجع

1 ـ محمود السمرة ، وآخرون : فلسطين .. أرضا وشعبا وقضية ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، إدارة التربية ، 1979 ، من تصدير الكتاب
2 ـ يمكن الرجوع إلى المرجع السابق ، المقدمة
3 ـ إيمان عامر : دور مصر الريادي في القضية الفلسطينية ، الموسوعة الثقافية للشباب ، مجلة صباح الخير ، العدد (7) فبراير ، 2010 ، ص3
4 ـ يمكن الرجوع إلى :
يحيى الفرحان : القدس (قصة مدينة) ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، دائرة الثقافة بمنظمة التحرير الفلسطينية ، سلسلة المدن الفلسطينية (6) ، د . ت ، ص5
5 ـ يمكن الرجوع إلى :
ـ إيمان عامر : مرجع سابق ، ص ص30 ـ 31
6 ـ المرجع السابق : ص ص 39 ـ 40
7 ـ السابق ص ص 44 ـ 45
8 ـ السابق : ص29
9 ـ محمود السمرة ، وآخرون : مرجع سابق ، ص ص 259 ـ 262

فهرس الكتاب

ـ إهداء صفحة3

فحة 5

ـ مدينة القدس في كتابات الرحالة المؤرخين
د.يسرى عبدالغني صفحة 7
ـ فتاوى القدس والأرض المحتلة
د. عمرو محمد عبدالمنعم صفحة 25
ـ ألم الأرض والغربة في الرواية الفلسطينية
د.عزوز على اسماعيل صفحة 51
ـ الخلفية التارسيخية للمشكلة الفلسطينية
د. محمد مصطفى عبدالنبي صفحة 63
ـ إسحاق موسى الحسيني علم من أعلام مثقفي القدس
د.نهى يسري عبدالغني صفحة 89
ـ انتفاضة الأقصى والقص في الأدب الفلسطيني
الاستاذة/منى بركات صفحة 101
ـ فلسطين محنة شعب وقضية وطن
د.عواطف يونس صفحة 125

ـ الفهرس صفحة137

******

مع تحيات دار الحسيني للطباعة والنشر والتوزيع

رئيس مجلس الادارة

عبد القادر الحسيني

المشرف العام

محمد عبد القادر الحسيني

المدير العام

عصام عبد القادر

نائب المدير

مختار عبد القادر الحسيني

الهيئة الاستشارية للدار

الدكتور حسام عقل الدكتور علي جاد الحق

الدكتور لطفي سيد صالح الدكتور بسيم عبد العظيم

الاستاذ عاطف عز الدين